الأخـــلاق

تأليف

أ/ عبد الرحمن زغلول

الناشر

شركة نوابغ الفكر

obeikandl.com

الطبعة الاولى
1435هـ / 2014
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زغلول،عبد الرحمن
الاخلاق / عبد الرحمن زغلول
ط1- القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2013
160 ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-594-5
1- الاخلاق
2-التربية
أ- العنوان

ديوى: 170

رقم الايداع: 2013/11446

obeikandi.com

obeikandl.com

obeikanal.com

التربية

التربية، على الإطـلاق، توصيل النامى إلى كماله اللائق به، فـتصيب النبات، وهى، فيه: تعهده بالسقى والسماد، وتنظيفه من النباتات الغريبة التى تزاحمه فى غذائه ونحو ذلك. وتصـيب الحيوان، وهى: إعداده إعداداً تاما لما يراد منه؛ ففى الفـرق مثلا تكون بجعله سـريع العدو سهل القيـاد. وتصيب الإنسان، وهى فيه: قول وعمل الغرض منهما توصيله إلى كماله المستعد له.

وهذه الأخيـرة على نوعين: تربيـة النفس، وتكون ببث الفضـيلة فيـها كالصـدق، واجتـثاث الرذيلة منهـا كالكذب؛ وتربيـة الجسم، وتحصـل بنحو الأعمال المساعدة على نموه واستكمال قواه كـالحركات الرياضية، فإن الحركات والأعمـال الجثمـانية المتنوعة سـبب فى نمو الأعضاء واسـتكمال قواها، كـما نشـاهد نحو هذا فى أقـدام السـعاة وأيدى كل العـمال الـذين يكثر عـملهم بأيديهم.

نعم إن التربية النفسية أفضل من التربيـة الجسمية، لأن الصناعات، كما قالوا، تتفاضل بتفاضل موضوعاتها، إلا أننا مع هذا، ندرك ثمرة كبيرة للتربية الجسمية، ولسنا بمخطئين إذا قلنا بضرورتها. فعليك بحمل الصغار الذين تلى أمرهم على الحركات المتنوعة، خصوصًا المنتظم منها، مع اقتناعك كما يأتى، أن الألعاب الرياضية الحاصلة فى المدارس من قسم الهزل الذى يراد به الجد.

العقل السليم - كـما يقال - فى الجسم السليم. وسـلامة الجسم لا تتم مع إهمالـه وعدم تعهـده بما يوصله إلى نموه وقوتـه، وحينئذ فـلا بد لنا من التربية الجسمـية، بحصول الجسم على قوته يتأتى لنا القيـام بالأعمال المتنوعة

التى تكلفنا إياها هذه الحياة كما ينبغى. التاجر والزارع، والصانع والكاتب، وجميع العمال فى هذه الدار، إن لم تكن أجسامهم نامي قوية، لا يقتدرون على أداء أعمالهم كاملة، بل لا بد أن يقع فيها نقص يسقط بقدره من الثمرات.

الجسم آلة أولى، وهبها الله تعالى للنفس تنفذ بها إرادتها فى هذه المواد، وتتصرف فيها. فينبغى أن يُعنى الإنسان بتجويد هذه الآلة، عنايته بسائر الآلات، بل هى أحق. والذى يهمل جسمه يضعف تصرفه فى المواد، وتقل ثمرته، ويكون مثله كمثل نجار يُباشر قطع الخشب بمنشار كليل. إنك تشاهد الناس القليلى الحركة - وكثير ما هم - لا يحصل لأجسامهم نمو نافع ولا قوة، حتى إنهم لا يستطيعون ركوبًا ولا سيرًا ولا عملاً من الأعمال المختلفة التى تستدعيها هذه الحياة، ويقل الانتفاع بهم، وأحيانًا يحملون غيرهم أثقالهم؛ فهم وإن شاركوك فى الحياة المطلقة أموات من وجه. فعليك بتربية جسم من تلى أمره كما تربى نفسه.

* * *

obeikandl.com

الخُـلُـق

حال للنفس تصدر عـنها الأفعال بلا روية ولا تكلف، كالسـخاء. فإن كانت تلك الحال بحـيث تصدر عنها الخيرات فالخُلُق فـاضل، كالصدق، فإنه ينشأ عنه نظام المعاملات، وإلا فناقص، كالكذب فإنه ينشأ عنه فسادها.

واختلف فى قبول الأخلاق للتغيـير على قولين: فذهب جماعة إلى أن الأخلاق منها غريزى، وهو ما لا يقبل التغير، ومنها غير ريزى وهو قابل له. وقال الجمهور أن كل الأخلاق قابلة للتغير، ولا شىء منها بغريزى، وإن هذا مـشاهد، وإن الرأى الأول يؤدى إلى إبطال قـوة التـمييـز والعـقل، ورفض السيـاسات كلهـا، وترك الصبـيان على مـا يتفق أن يكونوا عليـه. وإنه ليس بغريب أن يتـغير خلق الإنسان وهو عـاقل، مع مشاهدة أن الفرس بعـد كونه جموحًا يصبح ذلولاً سهل القياد.

هذا وبعض الأخـلاق قد يثبت تابـعًا لخلق أو وصف آخر، كـالكذب، فإنه يثبت تابعًـا للفخر أو كثرة الـكلام مثلا كما ترى فى بابه، والحـسد يتبع البغضـاء كما ترى فى بابه أيضًا؛ فمـثل هذه التوابع تزول بزوال متبـوعاتها، وذلك أمر مشاهد. وبعضها يثبت ويزول تابعًا لحالة العصب، صحة ومرضًا، أو قوة وضعفًا. فحينًا نشاهد الشخص شجاعًا مثلاً، وآخر جبانًا، كما تقتضيه الأحوال المختلفـة لعصبه. ومن هنا حكمنا بأن هناك رابطـة قوية بين العصب والأخلاق.

والأخلاق فى الجـملة منهـا ما هو راسخ، كـالشجاعـة والجبن، وهذه تعمل فـيهـا المؤثرات ببطء، ومنها مـا هو سهل التغـير بالتـأديب والعوارض

المتنوعة، كالكذب والنظافة والتبذير. فـقد جُرِّب أن بعض الناس كان مبذرًا، ولما أدّبه الفـقر زمـانًا صار مـقتصـدًا. وإشراب الدين، وفـضائله، وكـذلك المخالطة الحسنة، أقوى أساس تبنى عليه الأخلاق الفاضلة؛ ولهذا ننصح بهما لطلاب الفضيلة.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

القوى الثلاث

obeikandl.com

القوى الثلاث

إذا تعقلنا النفس الإنسانية قبل تعلقا بالجسم، تعقلناها فيما يظهر، خيراً محضًـا. أما بعد التعلق فـقد عرض لهذا المركب نفـوس أو قوى ثلاث، هى مصدر ما يقع منه من الخير والشر، وهى:

(١) القوة الفكرية:

وبها يكون الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأمور.

(٢) والقوة الغضبية:

وبها يكون الغضب والإقدام على الأهوال، والشوق إلى التسلط والترفع وضروب الكرامات.

(٣) والقوة البهيمية:

وبها تكون الشـهوة، وطلب الغذاء، والشـوق إلى الملاذ التى فى المآكل والمشارب، وضروب اللذة الحسية.

وهذه النفوس ضرورية جـدًا لحراسة الإنسان وسعادته، كـما أنها لازمة لتعميره فى الأرض.

أما القوة الفكرية فـفضلها لا يخفى، وسيجىء شىء خـاص بها. وأما القوتان الأخريان، فلأنه، على فرض عدم وجـودهما، كان ينتقى فى الإنسان مثل الشجاعة والصبر، واحتمال الكد والحمية، وطلب المآكل والمشارب، التى هى من ضروريات الجسم. ولو انتفت هذه الأوصاف ونحوها، لما تم للإنسان بقاء ولا للكون نظام. ونحن نسرد لك هذه القوى على الوجه الذى فى كتب الأخلاق:

obeikandi.com

أولاً: القوة الفكرية، أو النفس الناطقة:

وهى مختصة بالإنسان، مميزة له عن سائر الحيوان؛ ومتى اعتدلت هذه القوة بأن صارت فى الحد الوسط نشأت عنها فضيلة الحكمة؛ وهى هنا - كما نبَّه إليه بعضهم - ملكة تصدر عنها أفعال متوسطة بين أفعال الجربذة والغباوة. والحكمة تستتبع أوصافًا محمودة، كالذكاء، والعقل، وأصالة الرأى.

ولهذه القوة طرفان: فالأعلى منهما يسمى جربذة وهو أصل لكثير من الرذائل، كالخبث، والمكر، والدهاء؛ والأدنى يسمى بَلَها، وتصدر عنه الرذائل أيضًا، كالحمق والبلادة.

ثانيًا: القوة الغضبية، أو النفس السبعية:

وهى مشتركة بين الإنسان والحيوان. ومتى كانت هذه القوة خاضعة للنفس العاقلة، نشأت عنها فضيلة الحلم، وتتبعها فضيلة الشجاعة، وهى الإقدام على الأمور الكبيرة، إذا كان فعلها جميلاً، ويتبع الشجاعة أوصاف محمودة، كالشهامة والثبات والصبر.

أما طرفاها فهما: الإفراط ويسمى تهورًا، ويصدر عنه مثل العُجب والتكبر؛ والتفريط ويسمى جُبنًا، ويصدر عنه الذلة والجزع وحوهما.

ثالثًا: القوة الشهوانية أو النفس البهيمية:

ومتى كانت هذه القوة معتدلة فى حالة التوسط صدرت عنه فضيلة العفة. وظهور هذه الفضيلة فى الإنسان يكون بصرف شهواته بحسب الرأى، ويصدر عنها السخاء والصبر والقناعة والأمانة.

أما الطرفان فهما: الإفراط وهو الشره، ويصدر عنه مثل التبذير والوقاحة؛ والتفريط ويسمى خموداً، ويصدر عنه مثل البخل والتقتير والتذلل لذوى الغنى. ويحدث من هاتين القوتين متى اعتدلتا واستسلمتا للحكمة، فضيلة رابعة، اسمها: العدالة، وهى فضيلة ينتصف بها الإنسان من نفسه ومن غيره.

وينشأ عن العدالة فضائل، كالعبادة، وصلة الرحم، وحسن المعاملة. وأكثر علماء الأخلاق على أنه ليس للعدالة إلا مقابل هو الجور.

ويفهم مما سبق أن أصول الفضائل أربعة: وهى الحكمة، والشجاعة، والعفة والعدالة.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الشىء يَكْمُل بمزيته، والإنسان بنفسه الناطقة

كل شىء له غرض يُطلب منه، هو الذى نسميه مَـزيته وكماله. ونقصه راجع إلى كمال تلك المزية فيه أو نقصها. فمزية السيف مثلا القطع، فإن كان حادا ينصر الفارس عند الحرب فهو كامل، وإن كان كهاما يخذله فهو ناقص. ومزية أفـراس الحرب والسبق سرعـة العدو. ومزية أفـراس النقل القدرة على الحمل وجـر الأثقال. فـإن كان العـدو فى الأولى، والطاقة فى الثـانية كـما يُطلب، فـهى كاملة، وإلا فناقـصـة. ومزية اللغـات دلالتهـا على المقاصـد المختلفة، سواء كانت اللغة ملفوظة أو مكتـوبة. وكمال اللغة أمر من حقه أن يرجع إلى وضوح الدلالة، كما أن نقصه يرجع إلى خفائها. وإذن فمن الخطأ الواضح، أن تحكم بأن هذا الكتاب الصعب خيـر من هذا التاب السهل. فإذا كتبت فلتكن عنايتك موجهة إلى جعل القول سهلا. ومن الخطأ أيضًا ما يصبر إليه بعض الكاتبين من التعقـيد فى الإمضاءات، وتذاكر الزيارات «الكرتات»، والأحاديث والحـكم والمواعظ، التى يكتبـونها فى الألواح. نعم لنـا أن نجعل للطلاوة وحـسن التـركيب مـوضعًـا فى تلك الألواح، ولكن لا إلى حـد أن تُضطهد فـيها روح اللغـة، حتى يبقى الحـديث والحكمة صـورة فقط، تعلق للزينة. العـبارة الصـعبة تتـعب السامـع بلا جدوى، وتضعـف روح القول، وتذهب بالزمن من غيـر فائدة، وربما أفهمت غـير المقصود، وأدت إلـى غير المراد. المقصد من اللغة الدلالة على الأغراض المختلفة فقط فليس من الصالح تضـييع أزمـان فيـها. ومـزية بعض البـقر اللـحم، ومزية بعض آخـر اللبن والسمن، ومزية قـسم منه فلح الأرض. فإن كان الأول كثـير اللحم، والثانى

كثيـر الدسم طيب اللبن، والثالث مدربًا على إدارة الآلات المخـتلفة لزراعة، كالمحـراث والنورج، فكامل، وإلا فناقص. ومـزية بعض الكلاب الحـراسة، ومزية بـعض آخر الصيـد، فإن كـان الأول قليل النوم دائم اليقظة، والـثانى سريع العدو بحيث يطارد الحيوانات المختلفة ويدركها، فكامل، وإلا فناقص.

هذا، أما كـمال الإنسان فليـس بسرعة عـدوه لأن الفرس يسبـقه، ولا بكثرة لحمه فإن البقر أكـثر منه لحمًا، ولا بالمأكل والمشرب مما تقصر عنه همم كثيرين، وإلا كان حقيرًا؛ لأن كثيرًا من الحيوانات أقدر عليهما منه وأحرص، كالخنزير وسباع الوحوش. بل بنفسه الناطقة، بمعرفته وخلقه الفاضل. بالنفس الناطقة أُعد الإنسان للخلافة، عن الله تعالى، على الأرض وما فوق ظهرها، ومـا أودع فيـهـا؛ فـهذه أرض الله، وهذا مـلك الله. بالنفس الناطقـة تأهل الإنسان لسـعادتى الدنيـا والآخرة. انظر إلى هذا الهيكـل الذى تراه إذا انطفأ سراج عـقله وصار مـجنونًا، كيف يبطل مـعناه، ويهون شأنـه، ولا يبقى له قيمة، بحيث يكون أى موجود من الأشياء خيرًا منه. وقد اقتضت حاجة هذه الدار إلى العمل، بتوزيع الأعـمال المختلفة على الأفـراد، على كل فرد عمل مخصوص، أعده له استعداده غـالبًا، وصار هذا العمل منوطًا به، كان مرتبة العـمل مقـدار ما يحـسنه؛ ولهـذا لا ترى أهون على الناس من عـمل غيـر صالح. فالحارس مثلا يكمل بأمانته ويقظته. والطالب بصحة استعداده لإدراك ما يلقى عليـه. كذلك فروع الحكـومات المختلفـة، فالقضاة يـكملون بالعدل ومعرفة الحق، وعمال الداخلية بحفظ الأمن.

obeikandl.com

الدين وتأثيره فى الأخلاق

لا تجد زعيمًا أجدر بالزعامة، ولا إمامًا أخلق بالإمامة، وأولى بأن يبذل له الجماعة كل الطاعة، ولا قاضيًا أقضى بالفصل، وأحكم بالعدل - من دين سماوى؛ كما لا تجد معلمًا أبر فى مآربه، وأخلص فى نواياه، ولا علما أصدق فى تجاربه، وأصح فى قضاياه، ولا قولاً أحكم، ولا حكمة أتم، ولا سببًا إلى السعادة أقوى، وأقرب للتقوى- من دين سماوى، يهبط بصلة بين السماء والأرض، من طيه أن يعيش الناس فيسلام، وتصبح الأرض مخضرة بإذن ربها.

ويغشى الناس ليل دامس مظلم من الغفلة، لا يشرق فيه كوكب، ولا يسفر له فجر، فيقطعون الحق، ويصلون الباطل، ينصرفون عن الله تعالى وهم حسنة من حسناته، ويجحدونه وهم آية من آياته، ويعكفون على أصنام لهم لا تملك لهم من دونه شيئًا. تفتك بهم الرذيلة التى لا تذر من قلب أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وتوحى إليهم شياطينهم، فيفسدون فى الأرض، ويسفكون الدماء، ويروحون إلى الحروب وجز الرءوس، كما يروح الزارع المجد إلى الحصاد، لا يعطفون على قريب ولا يرثون لغريب؛ ألم تر كيف كانت العرب تئد بناتها؟!

يجىء الدين وهم هكذا، ويصيح بهم منه صائح، فينتبهون من غفلتهم، ويهبون من رقدتهم، وينبلج لهم صبح من الرشاد، حتى يروا اعوجاج مذاهبهم، والتواء سبلهم، ويصلوا الحق الذى كانوا قطعوه، ويقطعوا الباطل الذى كانوا وصلوه؛ يؤمنوا بالله تعالى، ويتوبوا إليه، وتطهر نفوسهم

من الرذيلة، ويعصوا شياطينهم، ويصلحوا فى الأرض، ويصبحوا بنعمة الله إخوانًا، متواصلين، متحابين، متراحمين، وتنجلى الشقاوة من على سطح الأرض انجلاء، حتى لو توارى شىء منها فى جحر ضب حرب لسلطت عليه عين من لدين فأبصرته، ويد منه فاجتثته.

إنا إذا شققنا الرءوس شقا، ثم صببنا فيها العلم صبا، ولم تكن مع هذا عناية بتقويم النفوس، وإصلاح الأخلاق، لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدًا؛ لا ندرى أخيرًا سلكناه فى تلك الرءوس أم شرًا، فكنا فى عملنا كمن يعطى الفقير دراهم فيشترى بها سلاحًا يقتل به الأبرياء. هذا بأن العلم إذا لم تقم عليه كفالة من الأخلاق الفاضلة تضمن للناس الانتفاع به، ذهبت فائدته، وأصابت منه الشرور معاول لنقض بناء السعادة، كما يأتى نحو هذا فى نتائج الأخلاق. فلا بد لنا من الأخلاق الفاضلة، والمعين على تحصيلها هو الدين.

إذا كان هناك مؤثر فى الأخلاق يصير الشر منها إلى الخير، كالتربية والمخالطة، فتأثيرة بالإضافة إلى تأثير الدين كالمتلاشى الزائل. ذلك بأن الدين إذا حل بقلب أراك قبل أن تقم من مقامك - من الجبان رجلا يهون عليه الموت، ومن الكاذب الذى لا يكاد يصدق صادقًا لا يكاد يكذب، ومن الشره الذى يكاد الشره يأتى على نفسه عفيفًا ورعًا، ومن المتكبر الشامخ بأنفه متواضعًا أقرب إلى الضعة، ومن البخيل الذى أضر به البخل سخيًا يؤثر على نفسه. يُحيل لك الدين الرجل الذى أنت أعرف الناس به إلى رجل قد تنكره، ولا تهتدى إليه إلا بدليل. إنه بعد أن كان شيطانًا رجيمًا، أضحى ملكًا كريمًا.

ما أشبه الدين بالسحر، لولا أن الدين قريب من الخير، بعيد عن الشر، والسحر بعيد من الخير، قريب من لشر، وطلب هذا حرام، وطلب ذاك واجب.

وكما يؤثر الدين فى الشخص، يؤثر فى الأمة، ولست تحتاج إلى برهان على صحة هذا أكثر من لفتة إلى جزيرة العرب صدر الإسلام، فقد حل مكان التفرق الذى كان فيه، والرذائل وسوء الحال، أضدادها. وبعد أن كانت جزيرة العرب حفرة من النار، تروعها الغارات، ويحلق فى جوها البوم، أصبحت روضة من رياض الجنة، ترفرف فيها راية السلام. فعل الدين كل هذا فى زمن قصير، قد التقى طرفاه، واجتمع قطراه، والطبيعة خزيا تنظر.

إن كان الدين إنسانًا له عين فالأخلق الفاضلة عينه، أو حيوانًا له قلب فالأخلاق الفاضلة قلبه، أو شجرًا له ثمر فالأخلاق الفاضلة ثمره، أو ينبوعًا فيه ماء فالأخلاق الفاضلة ماؤه. وليست الأخلاق الفاضلة أمرًا خارجًا عن الدين، فإن الخير الذى أتى به الدين راجع فى الأكثر إلى تقويم النفس، وتخليصها لأن تكون منشأ للخير، وهو مرجع الأخلاق الفاضلة. فى صحيح البخارى، فى أسئلة هرقل لأبى سفيان، أن قال له: ماذا يأمركم (يعنى رسول الله)؟ قلت (القائل أبو سفيان): يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، أى صلة الرحم. هذا هو الدين الإسلامى فى نشأته؛ ألست تراه أمر بخمسة أشياء: التوحيد الذى يقوم عليه كل البناء وثلاثة أخلاق، ثم الصلاة، وهى راجعة إلى الشكر، كما كانت آيات الكتاب العزيز فى الإنفاق والصدقات راجعة إلى خُلُق السخاء. قال ابن عباس رضى الله عنه: لكل

بنيان أساس وأسا الإسلام الخُلق الحسن. يرشد النظر والاختبار، إلى أنه يوم يأخذ الشخص على طريق الدين، تخبوا فى قلبه نار الرذيلة، وتنفجر فيه عين من الفضيلة، يصيب الناس منها بسجلين لسانه ويده، ويوم يُولى عنه، تضطرم تلك النار، وتنضب العين، ويغيض الماء.

إنه يوم استتب الدين فى قلبه، شاق نفسه، وفزع إلى الله تعالى، وألقى بقلبه فى يده، فمسح عنه من الرذائل، وخط فيه من خلال الخير ما شاء أن يخط، فاستقام وكثرت حسناته؛ ويوم تقلقل الدين فيه، شاق الله ورسوله، وصافى نفسه، وصار إليها قلبه، بعد أن رمى به الله تعالى فى وجهه، فمسخته ومسحت منه الفضائل، وطبعت عليه الرذائل، فاعوج وكثرت سيئاته. معنى هذا أنه فى يوم رجوعه إلى الدين، يطيع الله فيفعل الخير الذى يأمره به، وفى يوم ازوراره؛ يفعل الشر الذى تأمر به النفس.

أما تعليم الدين على الوجه المتبع عندنا فناقص لا خير فيه، لأنه لا يحدث فى النفس أثرًا، بل مرجعه إلى حشو فم المتكلم بألفاظ تنصب منه كلما فتحه للقول، وإن أثر فى فؤاده فكما يؤثر الكاتب على صفحات الماء. ألا وإن كل علم لا يبقى منه للمتعلم أثر نافع بين، يكاد يراه بعينه، ويلمسه بيده – عناء وباطل؛ ألا وإنه لا أثر خليقًا بالذكر لعلم الدين على الوجه المتبع. من ذا الذى، بعدأن يقرأ كتابًا من الكتب التى عليها تعليم الدين اليوم، يجد فى نفسه من قراءته أثرًا صالحًا؟! – يقع بصرى كثيرًا على متعلمين يغدون إلى المدرسة ويروحون، وهم يتبارون أحيانًا فى سرد كونه قادرًا وكونه مريدًا إلخ. هذا حظهم من دينهم، وإنى أؤكد للقارئ، قدر ما يستطيع واحد هنا أن يؤكد، أن هذه الأقوال لم تجاوز أدمغتهم، وأفئدتهم هواء.

فإن كنا لا نرى من تعليـمنا الدين لأبنائنا صلاحًا فى أخلاقـهم، فذلك لأن الدين الذى يستتبع الخلق الفاضل، إنما هو شـعور خير يقر فى الصدور. أليس تعليمـه عندنا يرجع إلى إطلاق الألسنة بالجـدل، وسرد براهين لا تزيد المتعلم يقينًا يوم اقتناعه، ولا تدفع عنه ريبًا يوم شكه؟! إنما ينبغى أن نريد من تعليك أبنائا الدين، أن نسقى قـلوبهم بالفضيلة والتقـوى، وإن لم يحسنوا أن يقولوا، وإلا دفعنا بهم إلى محامين. الفضيلة التى يجب أن نحرص عليها كل الحرص لنا ولأبناءنـا، محلها القلب الذى بين الضلـوع، لا اللسان الذى بين الفكين.

أرى تعليم الدين على وجه نافع يـرجع إلى أمرين: المادة والطريق التى توصل تلك المادة إلى القلب، وأرى أن تكون المادة على نحو ما يأتى:

حفظ شىء من القرآن الكريم والحديث فى: - إصـلاح النفس - معرفة العبادات، على وجـه مختصر سهل - نعمـة الله تعالى على الناس - وجوب شكره تعالى، وأن منه العـبادات - كمال الله تعالى - إيـراد شىء من صفات الفضل، مثل المغفرة والرحمة - محبـة الله تعالى، والاجتهاد التام فى مزجها بالنفس، وملاحظة أنها روح الدين - جزؤه للإنسان بما عمل، وما يرتبط بهذا من السمعيات.

فى الرسل:

سِيرهم، كمالهم البشرى، محـبتهم للناس، وحرصهم على سعادتهم، وسعيهم فيها، رغم ما لقوا من الأذى. وجـوب محبتهم والاقتداء بهم. سيرة النبى ﷺ تفصيلاً.

جملة صالحة من أمهات الأخلاق الفاضلة على أنها من الدين، وإتباعها

بما جاء فيها من الآيات والأحاديث، وجملة كافية من الأخلاق الناقصة، وبيان أنها تناقض الدين.

هذا ما أراه إجمالاً فى أمر المادة، وهى معان إذا تأثرت بها النفس حُملت على الخير. وإن لم أدل فى قولى، هذا، المختصر على الطريق التى تسلك لتوصيلها إلى القلب، فعسى أن يُوفق امرؤ آخر للدلالة عليها. هذا، وإن المعلم الذى يجعل نصب عينيه أن يُعلم من الدين جدلاً، ويبغى من هذا إصلاح النفس، يكون كمتطلب فى الماء جذوة نار. وأحط منه، معلم يرى أن الدين هو ذلك الجدل وتلك الأقوال.

أما الذى يجعل نصب عينيه، مد الشعور وسقيه بالمعانى والشواهد، فإنه يكون كالزارع البصير، يسقى الشجرة الطيبة بالماء العذب.

***

obeikandl.com

obeikanal.com

المخالطة وتأثيرها فى الخلق

لبعض الموجـودات تأثير فى البعض الآخـر تحدثه المخالطة؛ فـالهواء إن جاور الزهر طابت ريحـه، وإن جاور الجيف خبثت، والجـسم الحار إن جاور جسمًا باردًا أثر فيه الحرارة وتأثر منه بالبرودة؛ والكلب الكسلان إذا قُرن بآخر يقظ، ينبح الطراق، ويثب على من يتوجس فـيه ريبة، سرى فى الأول شىء من النشاط.

وقال بعض العارفين: إن الجمل الصعب قد يصير ذلولاً بمقارنة الذلول، والذلول يصـيـر صعـبًـا بمقارنة الصـعب. والإنسـان أكثـر الموجـودات تأثرًا بالمخالطة، وإنه لمجموع صور مما عليه مـخالطوه، جاءت إليه من حيث يريد، ومن حيث لا يريد، من حيث يدرى، ومـن حيث لا يدرى. وليس الفرد من كل أمة إلا رسمًا عملته على صورتها.

يقع التأثر بالمخالطة فى كل شىء، كالعادة، والخُلُق،والدين، والشعور.

ترى المرء فى أول أمره، يقيس أكـثر عوائده على عوائد الجـمهور الذى يعيش معه، لا يستطيع عـدولا عن ذلك، فلا بد أن يأكل كما يأكلون، وينام كما ينامون، وهكذا. ومن أراد أن يخالفهم فى غداء الظهر إلى الغداء ضُحى وجد المطاعم مـغلقة. ومن أراد أن يعـمل بالليل وينام بالنهار، خـلافًا لما هم عليه، فإن كان تاجرًا لم يجد من يشترى منه، وإن كان مستخدمًا وجد ديوانه الذى يعمل فيه مغلقًا. وإذا فارق الجمهور الذى يعيش معه إلى جمهور آخر، نبذ عـوائده التى تخالف هـذا، إما اضطرارًا كمـا مر، أو اخـتيـارًا متى طال الزمن، حتى علقت بنفسه العـوائد الجديدة. ومن الهين تكون العوائد بالمزاولة

واضمحـلالها. وليست هناك عادة، وإن واظب الشخص عليـا حياته، ترسخ حتى يتعذر تركها.

هذا فى العوائـد، وكذلك الحال فى الأخـلاق؛ فالذى نشـأ بين قوم لا يُحلون الصدق من الاعتبار مـحله، ولا يذوقون للحرية طعمًا، لا بد أن يؤثر فيه منشـؤه، ويكون نصيبه من الصـدق والحرية تابعًا لما عليه القـوم، ومقاربًا لنصيب واحـد منهم. وإذا لحق بقوم آخـرين، يُحلون الصدق والحرية مـحلا رفيعًـا، حتى امتلأت عين ذلك الشـخص وأذنه شواهد من ذينك الخلقين، لا يلبث كثيرًا حتى يكون له حظ منهما.

ومثل الأخلاق الدين؛ فـالذى نشأ فى أسرة مسلمة يصـير إلى الإسلام بمقتضى المخالطة، والذى نشأ فى أسرة مسيحية يصير إلى النصرانية بمقتضاها، وهذا أمـر بيّن؛ لأن الطفل، مع كـونه قليل النظـر، يصيـر إلى الإسـلام أو النصرانية متبعًا ما يرى فيه أبويه. قال الغزالى رحمه الله: فإن الصبى بجوهره خُلق قابلاً للخيـر والشر جميعًا، وإنما أبواه يميلان بـه إلى أحد الجانبين. قال ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. ويحدث بعـد هذا، أن ابن المسلم الذى يصير فى جو مـسيحى يتأثـر شعوره الدينى، ومثله ضرورة ابن المسيحى الذى يصير فى جو إسلامى.

وكذلك الشعور يتأثر بالمخالطة؛ فالـشىء الذى تشعر بقبحه إذا خالطت جمهورًا يلهج بحسنه، لا تلبث حتى يزول شـعورك بقبحه. إن لتوارد الشىء على النفس حتى تألفه تأثيرًا غريبًا فى شعورها؛ فمن يستقذر شارعًا لسُكناه، فما هـو إلا أن يسكن فيه أيامًا، حـتى ينطفئ فيه ذلك الشعـور ويألفه. وإذا رحلت من بلد تقـيم فيـه إلى آخر أنظـف منه، وأقمت فى الثـانى زمنًا، ثم

عدت إلى الأول، تغير شعورك بحاله، ولم يطب لك المقام فيه كما كان من قبل.

فالتأثر فى جميع ما سبق لا محالة واقع. ادفع بولد صغير، ولو زنجيًا، إلى فرنسا، واصطبر عليه حتى يختمر، فإنه يصير فرنسيًا، لولا تجعد شعره، وفُطس أنفه، وغلظ شفتيه، وسواد لونه؛ أو ادفع به إلى إنجلترا حتى يتم نضجه، تجده إنجليزيًا، لولا ما سبق. قال بعض الناس فى الذين يرسلون إلى أوروبا صغارًا للتعلم، وأصاب: إنك إذ ترسل ابنك إلى فرنسا صغيرًا، إنما تقايض على فرنسى، ونفقاتك عليه هناك فرق المقايضة. الطالب الذى يدخل الأزهر، تلقاه، بعد حين من الدهر، مجاورًا طبعت فيه أوصاف المجاورين، كأنما للأزهر قالب أفرغ فيه، وما هو إلا مخالطة المجاورين. من يدخل الجيش من التلاميذ ليصير ضابطًا، تراه، بعد حين، قد صُقل بمصقلة الضباط، وتُدرك له ميزة لا يشاركه فيها إلا ضابط آخر. أما ترى القروى والمدنى وأثر المخالطة فى كليهما؟ ألست ترى فى الأول نوعًا من الخمول والغرارة، بينما ترى الثانى نشيطًا خبيرًا بأحوال الناس والأشياء. وكم قروى لما فارق القرية فى إبان نشأته، وقطن بالمدينة، تساقطت من عليه قشرة القرويين وأضحى مدنيًا.

ومن يراقب الزوجة أى زوجة كانت، ير أنه إذا طال عليها العهد فى أسرة الزوج أضحت تمثلها فى أخلاقها، وأميالها، وبالجملة فى سائر أحوالها، أكثر مما تمثل أسرة أبيها. إن الجمهور ليس مخطئًا فى تلقيب الكثير من الزوجات بألقاب الأزواج، خصوصًا إذا طال العهد عليهن عندهم. أما تنظر إلى الطلبة الذين يسافررون لإكمال دراستهم فى أوروبا، فإنهم بعد أن يقيموا

هناك أربع سنين أو أقل، فى سن بين العشرين والثلاثين غالبًا، يعودون وقد تغير بعض أخلاقهم وعوائدهم؟! ألست تراهم أشد تمسكًا بالصدق والحرية والذمة من غيرهم؟! أحد الطلبة الذين سافروا كبارًا، كان خجله شديدًا، حتى قبضه حياؤه عن الناس؛ وبعد ثلاث سنين قضاها فى أوروبا، عاد وليس فيه بقية تُحس من هذا الخُلُق، وخالط الناس. وآخرون بعد أن جاوزوا الثلاثين، غير فيهم السفر عوائد وشعورًا، وحل محلها عوائد وشعور كانوا ينفرون منها. ولكن الصغير أتم قابلية للتأثر، والجديد أكثر رسوخًا فى نفسه.

والحق أن الشخص ما دام فى تيار المخالطات المتنوعة، استمر كل عمره كسبورة يتداولها التلاميذ، فإن سطحها يريك كل حين شيئًا جديدًا. هذا وإن مقدار التأثر ضعيف فى بعض الناس، إما لانقباضهم عنهم، فلا يطلعون على ما هم عليه اطلاعًا كافيًا، أو لأن نفوسهم تتنافر مع الجديد، كما تتنافر الكهربائيتان من نوع. وقد انتُدب، فى بعض الأزمان، أحد إخواننا للسفر إلى أوروبا للاستكمال هناك، فقال بعضنا: من شيع هذا المسافر يوم سافر إلى الأزهر، يستقبله عند عودته من أوروبا، ولم يتغير منه شىء.

فقد بان لنا أن تأثير المخالط شديد، وإن كان بطيئًا، يتمشى فى النفس كما يتمشى البُرء فى الجسم، لا كالدين، يغير الشخص فى برهة. فلا بد من اعتبارها فصلا من فصول التربية، وتخصيصها بنظر دقيق. التربية المنزلية، وتربية المدرسة، لهما حد ينتهيان إليه، أما تأثير المخالطة فإنه لا ينتهى إلا بالموت. كل الوسائل التى تُتخذ فى الأسرة والمدرسة لغرس الخير فى النفس، واستئصال الشر منها، من وعد ووعيد، وجزاء بملائم وغير ملائم، ربما لا تنفذ إلى النفس، وقد يقع فيها الخطأ، فتنتج نقيض المطلوب، أما المخالطة

فأثر لا يذهب شيء منها باطلاً، ولا يقع خطأ. الصالح تنفعك مخالطته، والطالح تضرك عشرته. فى الذريعة عنه ﷺ: مثل الجليس الصالح، كمثل الدارى إن لم يُجدك من عطره، يعلقك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين، إن لم يحرقك بشرره، يؤذك بدخانه. إذا صعب علينا إيصال الدين إلى نفس التلميذ على الوجه الذى قدمناه، فقد يسهل أن نصله بأسرة طيبة، ورفقاء خيرين. إذا أردت أن ترسل ابنك إلى بلد فيه مدرسة، فلا تظن أن كل ما عليك هو تحصيل نفقاته، بل تذكر أن هذا أهون الأمرين، وأهمهما: أن تلتمس لمعاشرته أسرة صالحة، ترضى له أخلاقها وآدابها، وإلا فلا أقل من أن تلتمس له رقيبًا مرشدًا، خيرا خبيرا.

وجنّب ابنك مخالطة الخدم ونحوهم، لئلا يُفسدوا أخلاقه وآدابه وعباراته، ويعلق بدماغه بعض ما هم عليه من الشر، أو ربما كانت النفس فيبعض الأحيان على استعداد تام لأن يعلق بها ما يرد عليها وينمو، فإن ألقى فيها أمثال أولئكم شرارة فربما انتهى أمرها بنار عظيمة، ترمى يشرر كالقصر. ورب صالحٍ رأيناه بأعيننا أخرجته عن صلاحه مخالطة شر قصيرة.

لا تُبح لابنك أن يجلس فى محل عام، كقهوة يأوى إليها السفلة؛ وإذا سار إلى محل تمثيل أو نحوه، فليكن مع رفيق خير. وبالجملة، فإن من يقدر الأخلاق الفاضلة حق قدرها، إذا راقب تأثير المخالطة فيها، أعانها نظرًا دقيقًا.

وحبذا لو اهتم نفرٌ من المعلمين، الذين يسعون وراء الخير، لا وراء المال، فأكتروا بيوتًا كبيرة، وقبلوا فيها التلاميذ، تلاميذ المدارس، يأكلون وينامون ويسترشدون؛ إذًا لفعلوا خيرًا وغنموا أجرًا.

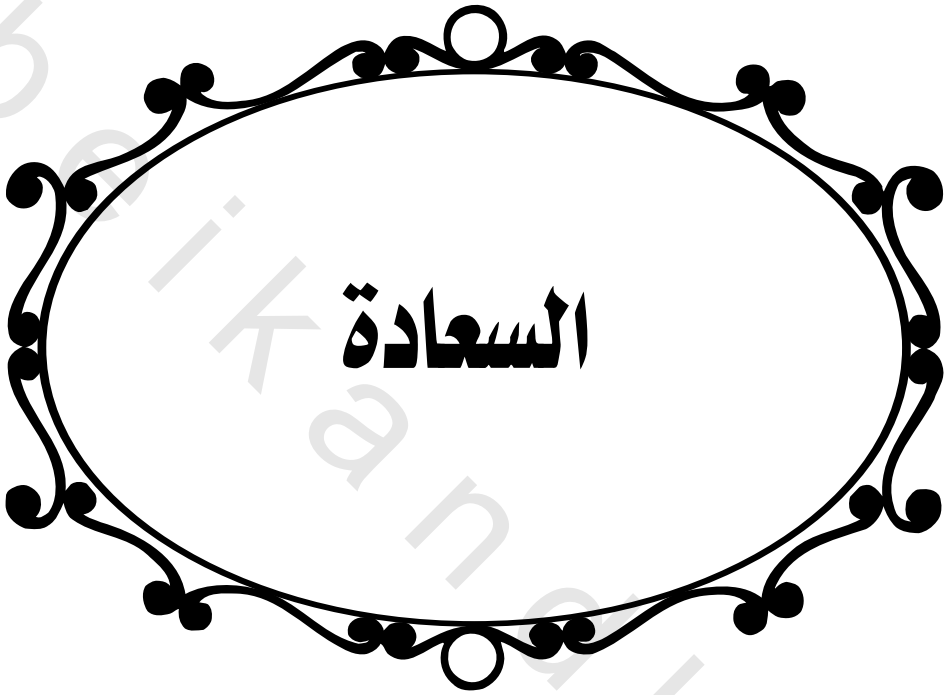

obeikanal.com

السعادة

اختُلف فى السعادة على أقوال، نسرد لك بعضها، ثم نتبعه بما عنّ لنا.

قال أرستطاليس: السعادة لها خمسة أقسام، ولا تحصل سعادة تامة إلا باجتماعها؛ أحدها: صحة البدن، والثانى: الثروة والأعوان، والثالث: حسن الذكر، والرابع: النجاح فى العمل، والخامس: جودة الرأى، وصحة الفكر، وسلامة الاعتقاد.

وقال أفلاطون ومعه آخرون: السعادة فى كمال النفس وحدها، وصحة الجسم من مرض يؤذيها.

وذهب جماعة من الطبيعيين إلى أن السعادة: صحة الجسم والنفس معًا، بناء على مذهبهم من أن الإنسان، هو الجسم والنفس، وزادوا حسن الحظ.

وذهب فريق من الفلاسفة، إلى أن السعادة فى كمال النفس فقط. فمنهم من قال: إن الجسم يعوقها عنها فلا تحصل إلا بعد الموت. ومنهم من قال: ينبغى حصولها فى الحياة، وإن الجسم ليس بعائق، لأنه من القبيح أن تكمل نفس الإنسان وتنصرف إلى صنوف الخيرات، ويسمى مع ذلك شقيًا.

وقد بنوا تعريفهم على إيراد الملزومات التى تحصل معها السعادة، ولم يبينوا ما هى السعادة نفسها. والذى يلوح لنا، أن السعادة نفسها سرور ليس منه ألم، وراحة ليس منها تعب؛ أو سرور لا يستلزم ألمًا، وراحة لا تستلزم تعبًا؛ كالسرور الذى يجده الزارع المجتهد عند الحصاد. فإن كان هذا السرور

لا يسلم للشخص، بل من ورائه مشاق، مثل اللذات غير المشروعة، فليس خليقًا باسم السعادة، لأنه قد يذهب بصحته بل بأجله. والسعادة غرض الناس كلهم، الذى يصوبون إليه فى هذه الحياة، وإن سعوا إلى رميه من طرق مختلفة. فطلاب الأموال، وطلاب المناصب، لا يطلبون هذه الأشياء لذاتها، إنما يطلبونها ليصيبوا بها السعادة، أعنى للراحة والسرور. فأنا أطلب أن أمضى فى وظيفتى زمنًا حتى يكون لى فى المعاش نحو عشرة جنيهات مثلاً، ثم أبتغى أن أعمل شيئًا أؤجر عليه بلا ألم، مع حرية تامة؛ إنما أطلب ذلك لسرورى وراحتى. وذلك يكد فى جمع الأطيان، حتى يكون له خمسون فدانًا تكفى لعيش يجد معه السرور والراحة، حتى آخر أجله. وذلك يضرب فى الأرض بتجارته، ويشقى فى أسفاره وغربته، يجمع مالاً يكفيه مع اليسر، ويعيش به فى سرور وراحة، وهكذا. وهذه أمثلة للسعادات الجزئية. أما السعادة على الإطلاق، فسرور وراحة على الإطلاق. وهذا غير متأتّ فى هذه الدار، لأنه ما دامت النفوس مقسمة على الآمال والهموم والأحزان، والأجسام مقسمة على الصحة والمرض، والقوة والضعف، والموت والحياة، ولا سبيل لحى أن يسلم من هذه العوارض، فلا سبيل إلى وصول السعادة المطلقة. وغاية الأمر أنها أقساط جعل القَسام بعضها فوق بعض، بما جعل فى الشخص من الاستعداد، وما سلكه هذا من سُبل الرشاد، ونحو ذلك. والقسط الخليق منها بالطلب واسم السعادة، هو ما نجده فى الأخلاق الفاضلة، خصوصًا الرضا. وفى الفصل التالى شىء من التوضيح لهذا.

obeikandl.com

نتائج الأخلاق

أهدى إلينا الله تعالى، تفضلا منه، قسطًا وافرًا من السعادة، فى طى الأخلاق الفاضلة، لا يصل الإنسان إليه بدونها؛ فانحرافنا عنها، إعراض عن تلك المِنحة السنية.

عجبًا للإنسان يُهدى إليه العَرَض الحقير فيتقبله مسرورًا وتُهدى إليه السعادة وهى مطلبه فيلوى عنها!! ليست نتائج الأخلاق الفاضلة التى يسعى فى تحصيلها الإنسان سوى السعادة، ولا نتائج الأخلاق الناقصة سوى الشقاوة، التى يحاول أن يفر منها. الذى يظن أن السعادة أمر خارج عن النفس، ويرحل عن هذا البلد يبغى أن يصيبها فى ذلك، مثله كمثل الذى فى يده شىء غاب عن خاطره أنه فيها، فتحول عن مكانه يتلمسه فى مكان آخر. كذلك شقاوة الإنسان فى نفسه التى بين جنبيه، يعنى فى أخلاقه الناقصة. والذى يفر من بلد يبغى أن يفر بذلك من الشقاء، يحاول فى المعنى أن يفر من نفسه. اللهم، إلا فى بعض أمور عرضية قوية تقتضيها حالة المكان. ويمكننا أن نتعرف هذا بنظرة صادقة فى الخلق الفاضل وأثره، والناقص وأثره. وذلك أنا نجد السخى سائدًا قضى الحاجة، شاعرًا من هذين الوصفين بسرور؛ على أنه قد يجد سرورًا أتم، فى انتشال الفقراء والمعوزين، من وهدة الفقر إلى الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر، والراحة بعد التعب. وكذلك حال من جد فى عمل وثبت فيه حتى أتمه، وفاز بالثمرة التى عمل لها. وهذه الثمرات سعادات جزئية، ولكل خلق فاضل ثمرة، هى سعادة جزئية.

والأخلاق الفاضلة يعسر إحصاؤها، كذلك الحال فى الأخلاق الناقصة.

انظر فى أحـوال الحسـود، وتأمل فى الآلام التى يكابدها، كلما وصـل أحد إخوانـه إلى نعمـة، ونعم الله لا تحصى! وانظر إلى الحـريص، وأكثـر الناس حريص، كـيف استعبـد حرصه، وطوقه بطـوق ثقيل من الذل، لا يُفك عنه حتـى يموت؛ وفكر فى الآلام التى يكابدها حيـنما يفـوته عَرَض حـقيـر كان يتوقعه، والغضب الذى يستفـزه حتى يذهب بسمعه وبصره وفؤاده. ولا نُطيل عليك القول، بل نكلك إلى نفسك، وإلى ما يأتى بعد فى الأبواب المختلفة.

الخلق الفاضل يقـرب من الدين، والناقص يُبعـد عنه؛ فإن الدين ليس بأجنبى من الخلق الفـاضل، بل هو مُـقرب له. والـشخص الذى يسـعى فى تحصـيل الكمال الحق، أو الفضـيلة، أو الخلق الفاضل، مـتى عرف الدين لا يجـد بدًا من قبـوله، لأن الدين يكون طلبـته عـلى الوجه الأكـمل، والخلق الناقص مُبعد من قبول الدين؛ فالحساد والمتكبرون، عاقتهم نقائصهم عن قبول الدين، كما يأتى شىء من ذلك فى الكبر.

ولا ينبغى أن يكون حرصنا على الأخـلاق الفاضلة، دون حرصنا على العلوم، فرب خُلق فاضل يفـيدنا أكثر من كتاب مُلىء علمًـا وحكمة. وكأين من عالم مـوسر، يمر بذى الحاجة فـيعرض عنه، مع علمه بما قـيل فى إغاثة الملهوف، وجاهل سليم الفطرة، تحمله سلامة فطرته على قضاء حاجته.

الخلقُ الفاضل لا يصدر عنه إلا خير؛ والعلم، بدونه، كثيراً مايكون آلة للشر. فالكاتب إذا لم يكن أمينًا، كانت معرفـته الكتابة سببًا فى تزوير العقود والسندات، والمأذون إذا لم يجـد من نفسـه ذمة، اختـار الأقوال الضـعيـفة، والمذاهب المهجورة، والحـيل للعمل وغير شـرع الله، وسعى فى جلب الهرج وإفـساد النظام. والحـداد إذا لم يكن ذا ذمـة أيضًا، اشـترك مع اللصـوص، وصنع لهم المفاتيح، والعُدَد التى تعينهم على باطلهم.

كل القوى الموهوبة من الله تعالى، كالمال، والجاه، والعلم، إذا لم يأخذ بزمامها قائد من الأخلاق الفاضلة، كانت مصائب شديدة.

فالشخص الذى أُعطى الجاه، إن كان فى ذاته خـيراً، يبذله فى مساعدة الضعفاء مثـلاً، والسعى فى قضاء المصالح. أما إذا كانت نفسه خـبيثة، وقلبه ممتلىء بالعداوة والحقد على هذا وذاك، فـإنه يجعل من جاهه آلات للشرور، ويستعين به على الإيذاء. والذى يُعطى المال، إن كان خـيراً محسنًا، سعى به فى صنوف الخيرات، وإن كان فى طوع نفسه البهيـمية، مثلاً، استعان به على تحصيل اللذات غير المشروعة، واشترى بماله شراً.

ومثل هذين العـالم؛ فإن كان شـريراً أعانه علمه عـلى الشر. انظر إلى بعض المحامين الذين جلسوا لفعل الشـر كيف يصنعون! يقع أن أن العالم إذا سقطت أخلقه استُـغنى عنه، ولا يُنتفع بعلمه. فبعض الناس قـد غلبته القوة البهيمية، فجلس لشـرب الخمور، حتى صار لا يصلح لشىء، مع كونه يتقن العلم، أو اللغة النافعـة، ويحتاج إلى مثله. وبعضهم زايلـوا مراكزهم، وقد كان يمكن أن يُنتفع بهـم انتفاعًا تامًا، لولا نقـبصة فيهم، وبعـضهم باقون فى مراكزهم لسبب ما، وفيهم نقص أبطل منفعتهم.

إن الشـخص ليبنى له بيـتًا مـن المجد بخُلُق واحـد يكمل فيـه: فهـذا السموءل ابن عاديًا، ذهب صيتـه بخلق كَمُل فيه، وهو الوفاء! وحاتم طيئ، لما كملت فيه فـضيلة السخاء علا ذكره، حتى إن ابـنته لما قدمت على رسول الله ﷺ بسط لها رداءه، وأجلسـها عليه! أترى كيف تجل العـامة عنترة، وأبا زيد، لشجاعتهما، ويجلسون لاستماع أقاصيصهم كأن على رءوسهم الطير!! والذين اشتهروا بخلق ناقص ضرب بهم المثل، وأصابهم ازدراء الجمهور بهم.

إذا نظرت إلى الأمة العـربية، رأيت أنها ما وصلت إلى الملك الكـبير، فى بدء الإسلام، إلا بشجاعتها، التى جاءتها من مـعيشتها البدوية، وقيام كل فى البـادية بحراسـة نفسـه، ومن صفـة أخرى جـاءهم بها الإسـلام، وهى الاتحاد؛ فـإنهم صاروا يدًا واحدة على عـدوهم، وأدركوا فى ذلك العهـد ما أدركوا، وإن لم يكونوا أمة علم حينئذ. ودولة الرومان الواسعة الأطراف، إنما اختل أمرها، وتفـرقت كلمتها، لما أخلدت إلى الراحـة، ومالت إلى الترف، وانغمست فى الملاذ. وكذلك شأن الأمم فى الغالب إذا اقتربت نهاياتها، سلط الله عليها من أنفسها رذيلة أو رذائل، فذهبت بها.

إن خلقًا واحدًا فى شخص واحد قد تسقط به الأمة سقوطًا.

فالحاكم إذا كان مبـذرًا، وامتدت يده إلى بيت المال، جر على الأمة دينًا لا تقوى معه على حاجاتها، ولا تمد عينها إلى مصلحة تستدعى النفقة، وتغل يدها عن العمل، وتُضرب عليـها السيادة لغيرها، والمراقـبة، وتقع فى الحَجْر كالشخص السفيه، وتخسر من استقلالها قسطًا أى قسط، وتحمل على كاهلها نير الاستعباد.

وكذلك إذا تعاقب على الأمة ملوك جائرون، وحكموا فيها بالاستبداد، أصبـحت الأمة وقد فـقدت شجاعـتها وإباءها، وصـارت طُعمة لغـيرها من الأمم. فـقد ذكـرنا لك أمثلة شـتى تدرك منهـا فعل الأخـلاق بالأشخـاص والأمم.

***

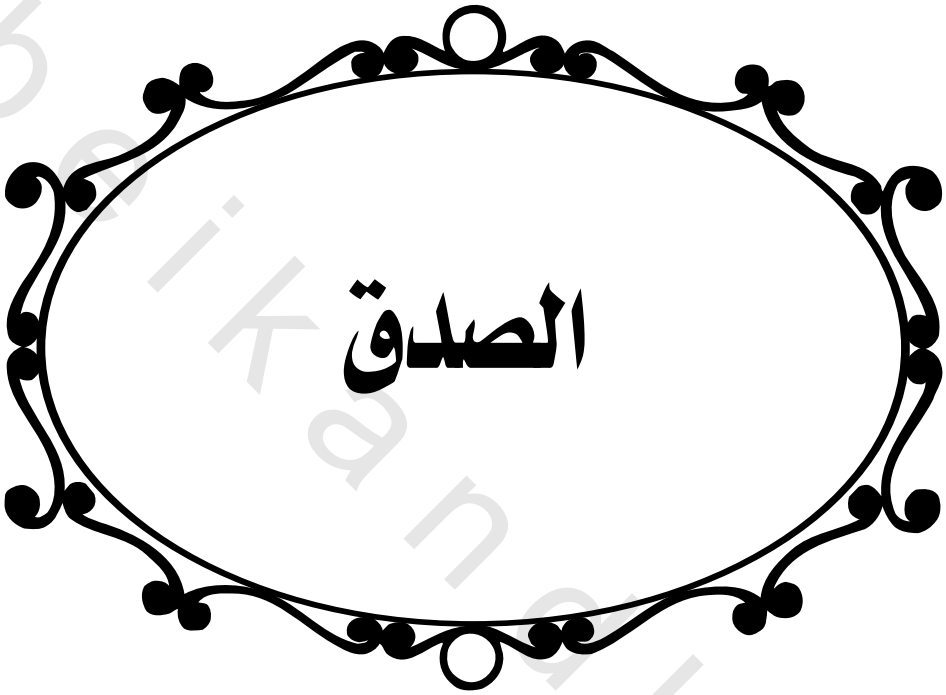

obeikandl.com

الصدق

الصـدق يكون فى القول أولاً، وفى جـميع الدوال ثانيًـا، كالإشـارات المستعملة بالرأس واليد، للدلالة على مـعان. كذلك يكون فى الأحوال. فإذا خاض جمـاعة بالباطل فى حق غائب، فـسكت سكوت الموافق، فذلك منك خروج عن الصدق. والحاصل أنك إذا قصدت إفهام غير الواقع، فدللت عليه بأى شىء، فأنت كاذب.

ذهب بعض علماء الأخلاق، إلى أن الصـدق حسن لذاته، بقطع النظر عما يرتبـط به من الآثار، وقالوا إنه من الفضائل المطلوبة لشـخص الإنسان، وإن الكذب لا يليق بمرتبته.

إذا صدقت فقد أعنت غـيرك بصدقك على البر، وذلك واجب عليك. الصدق واجب، لأن ضـده وهو الكذب مفسـد وضار. فمن أراد أن يشـترى شيـئًا مـثلاً، وهو ردىء، واستـعان بمعـرفتك فسـألك عنه، وجب عليك أن تذكره له، وإلا وقع فى ضرر أنت السبب فـيه، مع أنه لا يجوز لك أن تضر الناس. ومن سألك عن طريـق، وجب عليك أن تصفه كـما هو، وإلا ضل ولقى تعبًـا، ولا يجوز لك أن تُضل الناس. إذا صدق الشـخص، كان له من صدقه براءةٌ من الغش والنفاق، والمداهـنة، والغدر والخيانة، والرياء، وخلف الوعد، لأن هذه الرذائل مختلطة بالكذب، والصدق حـافظ من الوقوع فيها، وكان امرأً ذا ذمة يفى بالوعد، ولا ينقض العهد.

لولا الصدق لانتزعت ثقة الناس بعضهم ببعض، ولما وصل إليهم شىء من الأدين والعلوم والصنائع، وبطلت جـامعتهم، وتعـطلت لغاتهم، وذهبت

باطلاً، وتقطعت روابطهم، وفسد نظام العالم أجمع، حتى كان كل فرد يقطن وحده فى صحراء بعيداً عن الناس. فليس فى الأخلاق كما ترى، خلق أمس بالإصلاح والنظام من الصدق، ولا أفسد بهما من الكذب. من أجل هذا كان الصدق أول الفضائل، والكذب أول الرذائل.

فلصدق واجب عليك للناس، ولا سيما الذين يتصلون بك منهم، كما هو واجب عليك لذاتك.

إنه لا يمكن أن يصل إلى شرف حقيقى إلا الصادق. أما الكاذب فإنه محتقر ممقوت، خصوصًا عند ذوى الفضيلة، وإن رفعه المقدار فى بعض الأحيان، إلى المناصب الرفيعة، والرتب السامية.

شبّه بعض العلماء الكذاب بالمنتحر، قال: هذا يقضى على حياة الجسم، ذاك يقضى على حياة الفضيلة، وشتان ما بين الحياتين.

التاجر إذا صدق فى تجارته، اطمأن إليه الناس، وعولوا على الشراء منه، وحفظوا أوقاتهم من الضياع فى شراء عَرَض حقير، ومعرفة جيده وثمنه، وأثرى. كذلك الصانع إذا صدق فى صناعته، والزارع إذا صدق فى زراعته، فإن صدقهم يعود عليهم باليُسر، وعلى الناس بالراحة.

عليك بالصدق فى موضع ترى أن الكذب ينفعك فيه، لأن الصدق حق الناس عليك، فلا يجوز لك أن تُخل به، رغبة فى الحصول على خير موهوم أو محقق؛ ولأنك مع كل ضرر يأتيك من جهة الصدق، خير منك مع كل فائدة تأتيك من جهة الكذب. على أن الأمر قد يجىء على غير ظنك، وترى من بعدُ أن الخير فى الصدق.

عليك بالصدق فى موضع ترى فيه أن كذبك مما لا يطلع عليه أحد، لأن الله مطلع عليك، ولأنك تكون قد اضطهدت الفضيلة الواجبة عليك لشخصك، وأنه قد يكون فى الأمر ترتيب لا تقف عى سره، ينتهى بظهور كذلك، فتقع فى الفضيحة:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

اتق الله فى أسرتك وأبنائك، الذين جعل الله فى عنقك تربيتهم، وتوصيلهم إلى الفضيلة، فلا تكذب أمامهم، وإن كنت هازلاً، فإنهم يقلدونك فى أحوالهم.

ويل للأبناء الناشئين بين أبوين يكذبان فى الجد والهزل، والسر والعلانية، ويخلطان أكاذيبهما بثلم أعراض الناس، والحط من شأنهم! إنهم ليزرعون شوكًا فى قلوب أبنائهم، يجدون متى كبروا لذعه فى أحشائهم، ولا يثمر بين الناس إلا عناءً وهرجًا.

عليك بالصدق، خصوصًا إذا كنت معلمًا، لأن صورتك تنتقل فى نفوس كثيرة، وأنت أعمل من غيرك فى مساعدة أمتك على الفضيلة أو الرذيلة.

ويل للأمم من الحكومات الظالمة، لأنها تقتل فيها الفضائل، التى فى مقدمتها الصدق، كما فعلت بنا تلك الحكومات السالفة والقوانين. إن بلادك هذه أصيب جمهورها بالكذب، فيما أصيبوا به من الأخلاق الفاسدة، فليكن حظها منك المعونة على معالجة هذا الداء، لا أن تكون من العاملين على استفحاله. وقد ذيلت باب الكذب بالعلاج الذى ذكروه لاستئصاله.

والحاصل، أن اللسان نعمة لله تعالى فيك، وهبها لك لتحصل بها الخير لنفسك، ولأبناء جنسك؛ فإذا تصرفت به فى المصلحة، كان لك فضيلة كبرى، وأمنت مقت الله تعالى؛ وإذا انحرفت به عنها، وسولت لك نفسك الكذب، فاستعملته آلة للشر فى هذا العالم، وكنت به معوانًا على إفساد نظامه، وإبطال حركته، حاق بك سخط من الله وهوان من الناس؛ فاتق الله تعالى وراع جانب الفضيلة.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

obeikandl.com

الوفاء بالوعد

إذا اتفقت مع آخر، على مقابلته صباح غد فى الساعة الثامنة عند محطة الكربائية بالعباسية، أو قرضه عشرة جنيهات، فهذا وعد يجب عليك الوفاء به. دلت عبارتك على قضية خبرية، هى أقابلك غدًا، أو أحضر لك عشرة جنيهات، فإذا مضى الغد ولم تسع لمقابلته، أو لم تحضر له عشرة الجنيهات، كان الواقع غير مطابق لقولك، يعنى أنك كاذب، والكذب غير جائز. أوجبت عليك قضيتك التزامًا تتعلق به مصالح لغيرك، فلا بد من الوفاء به. نعم لم يكن سعيك إلى العباسية واجبًا عليك من قبل، ولكنه وجب بالتزامك، كالنذر توجبه على نفسك. من أجل هذا قيل: العدة نافلة والإنجاز فريضة. إنك إذا وعدت إنسانًا بشىء ما، فقد يترتب على موعدك مصالح جاءت من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى، ولهذا ينبغى الوفاء. قد تحدث حاجة لا تعلمها لمن اتفقت معه على المقابلة، ويعلقها على حضورك، فلا يحل لك أن تُخلف الوعد. إذا لم يكن غير أن تذهب الثقة بك حين تعتاد الخلف، وأن تُدعى كذابًا، وتُذيق منتظريك مرارة الانتظار، فهذا كاف لجعل الوفاء محتمًا عليك. إن كنت لا أخالفك فى أن الوعود مختلفة، بعضها مهم وبعضها دونه، فأنت لا تخالفنى فى أن هذه النتائج مرتبة على أقل الوعود جدوى.

الوفاء، فى الجملة، لازم لسعادة المجتمع البشرى، وثقة الناس بعضهم ببعض، وسير الأعمال فيما بينهم سيرًا حثيثًا، وحصول التعاون. هب أن الناس كلهم أخلفوا مواعيدهم: هذا التاجر الكبير، مع صغار التجار الذين

يأخذون منه، وهم معه، وهذه المصانع مع عُمالها فى دفع أجورهم، وهؤلاء المدينون مع دائنيهم، وهذه المخابز مع البيوت التى وعدتها بتفريق الخبز عليها يوميًا، وهكذا؛ أليس معنى هذا الحيرة، ووقوف الكثير من الأعمال؟! وإذا دام الحال كذلك، أفلا تكون النتيجة عدم ركون الناس بعضهم إلى بعض، وضياع ثقتهم، وبطلان جميع المعاملات المترتبة اليوم على المواعيد؟!

مَنْ مِنَ الناس من لا يشترى وينقد الموعد ثمنًا إلى أجل؟ إن النتيجة السيئة، التى تحصل على تقدير عدم الوفاء، تربو على أن يصبح العدد الكثير من العالم وقد تزيفت نقوده، وتولت كفاءته للمعاملات. سل كثيرين من تجار اليوم، ذوى الدوائر الواسعة كيف ابتدءوا فى التجارة، ينبئوك أنهم ابتدءوا فى عروض قليلة، ثم جلبوا إلى محالهم تجارات واسعة لا يملكون من أثمانها غير ما عرفوا به من الوفاء، حتى صاروا إلى هذه الدوائر الواسعة. كان يتردد علينا وأنا شاب، شيخٌ من تجار القطن، وكان يحدث بحكايات أكثرها عن بيعه وشرائه، تتخللها هذه الجملة التى طالما أُعجبت بها (سرمية التاجر على قدر صداقته)، وغير خفى أن السرمية هى رأس المال. نعم فإن الثقة بالشخص ثروة ثانية له، فلا ينبغى أن تستهين بالخيرات المقترنة بوفاء الوعد، كما لا ينبغى أن تستصغر الشرور التى يصير إليها الخلف. بجوارنا بمديرية الغربية بلدان، يوجد فى أحدهما بعض الصناع، ويقام فيه سوق، والآخر بجانبه يقضى أشغاله منه. ذهب رجل من أهله إلى البلد الثانى، واستصنع فيه حذاء عند إسكاف، فضرب له هذا أجلاً لإتمام الحذاء، ولم يف بموعده. غضب المستصنع، لأنه رأى أن العيد سيوافيه بحذائه البالى، فمد يده إلى حذاء آخر، وأراد أن يأخذه، فغضب لذلك الإسكاف، وابتدأ الشر بينهما. انتهى هذا،

بعد مناوشات، بتـذمر أحد البلدين، وفى القرى شىء من عصبـية الجاهلية، وهجوم لى البلـد الثانى فى يوم سوقـه، وإهانة بعض أهله، وإطلاق البنادق التى أصيب البعض بنارها. اقتضى الأمر تدخل الحكومة، طبعًا، وحكم على نحو أربعين من البلد الهاجم بالسجن أزمانًا مختلـفة، أقلها ستة أشهر. سيق المجرمـون إلى السجن، أظلهم فـيه أبان الزراعـة، وكلهم زُراع، فسـاء الحال طبعًا. هذا إلى مـا أصابهم وأصاب أُسرهم من الكدر، وقـد مضى على هذه الحادثة أربع سنين، وصدور البلدين تفيض عداوة وحنقًا.

هذا ما يلوح لنا من ترتب العـمران على الوفاء. وقد قـال الله تعالى، وهو أصدق القـائلين: «يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تـفعلون؟ كبر مـقتًا عند الله أن تقولوا مـا لا تفعلون!» قـال أبو السعود، فى كـلامه على تفسـير الآية: معناها: لأى شىء تقـولون نفعل ما لا تفعلون، من الخـير والمعروف. على أن مدار التـعبيـر والتوبيخ فى الحـقيقـة، عدم فعلهم، وإنما وجّـهه إلى قولهم، تنبيهًا على تضاعف معصيتهم، ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الـوعد به أيضًا. ولو قـيل لم لا فعلون مـا تقولون، لفـهم منه أن المنكر هو ترك الموعود. وفى الكشاف ما يفيد أن لفظ كَبُر دال على التعجب، ومعنى التـعجب تعظيم الأمر فى قلوب السـامعين. قال والمقت أشـد البغض وأبلغه، وقـوله عند الله أبلغ من ذلك، لأنه إذا ثبت مقـته عند الله، فـقد تم كبره وشدته، وانزاحت عنه الشكوك. وفى الـطريقة المحمدية فى الكلام على خلف الوعد، من رواية مـسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنهمـا، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: آية المنافق ثلاث، وإن صـام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدّث كـذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خـان. وفى الطريقة أيـضًا: من

رواية البخارى ومسلم، عن ابن عمـرو بن العاص رضى الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منها، كـان فيه خـصلة من النفاق حـتى يدعها: إذا أؤتمن خـان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجـر. ونقل أيضًا أن الإمام أحمد ومن تبعه، يرون الوفاء بالوعد واجبًا، والخلف حرامًا، سواء كان فى أمر الدين أو الدنيا، نوى الخلف أو لم ينو. ثم نقل أن كـثيرين يذهبون إلى أن الوعـد بنية الخلف كـذب حرام، وأمـا بنيـة الوفـاء فجـائز، لكن لا يجب الوفـاء، عند الأكثر، بل يستحب، ويكون الخُلف مكروهًا تنزيهًا، ودليلهم فى ذلك ما رواه أبو داود والترمذى، من قوله ﷺ: إذا وعد الرجل ونوى أن يفى فلم يف به، فلا جناح عليه. وفى رواية فلا أثم عليه (اهـ. ببعض تصرف).

فقـد بان لك، من طريق العقل والشرع، أن الوفـاء بالوعد واجب، إلا إذا اضطررت فلم تف، وإلا فـيا ليت شعـرى: كيف تجب نيـة الوفاء، وهى وسيلة إليه، حـتى إذا جئنا للمقصد، قلنا إنه غـير واجب؟ كيف نصنع بالآية والحديثين؟ لِمَ لم يكن معنى لم يف لم يستطع الوفاء.

إذا عَنّ لك عدم إنجـاز الوعد، فذلك مـوكول إلى صاحبك، فـإن شاء أقالك.

وإذا عرض لك مانع قوى، كمرض شديد يعوقك عن الوفاء، وجب أن تبادر بأخبـار صاحبك، فى أى وعد، أيا كان، فـإنه ربما يكون قد علق على الوعد أمـرًا، فإذا علم بمـرضك احتاط لـنفسه. وإن كـنت قد وعدتـه بموعد مركب من أمرين، وعـجزت ع أحدهما، بقى الثانى واجبًـا. مثلاً، إذا كنت

وعدته بأن تقابله غدًا، ومعك كتاب كذا، فإذا مرضت بقى عليك إرسال الكتاب.

أراك ستصرف الآية الشريفة إلى شيء خاص، أو إلى جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ، والأحاديث التى جاء فيها ذكر المنافقين، إلى عبد الله بن أبى بن سلول، ومن هم على شاكلته، من رجال زمنه. دعنا من مثل هذا، واعلم بأن الآية مقال الله تعالى، الذى لا تنفع عنده الأسماء ولا الصور، فى أى عهد كان، ومن أى صنف كان، إلا من أتى الله بقلب سليم. ويل لهذه الرءوس التى تخيلت، والألسنة التى كذبت من عذاب يوم الدين!! لم يكفنا جهلنا فى كل شيء، حتى جعلنا له ناصرًا علينا، من فساد أخلاقنا، وهذياننا فى كل شيء. قادتنا الخيالات إلى صرف أخلاق الدين وآدابه وحكمه، إلى من قبلنا، ورضينا من كتاب الله بالعناء. فشا فينا الكذب وخلف الوعد، حتى إن الإنسان ليُعجب ممن يحافظ منا بدقة على موعده. تواعدت منذ أسبوعين، أنا وصاحب لى فتأخرت لسبب نحو ثلاث دقائق، ولما وصلت إلى المكان ألفيته يلومنى على تخلفى ثلاث الدقائق، فأخذنى شيء من الدهشة وما أدرى أكانت دهشتى من حضوره فى الدقيقة أكثر، أم من عتابه ولومه، وأرجو أن يكون عن نفس.

من أخاطب الآن، بتعويد أحداثنا هذه الفضيلة من أول أمرهم؟ ألأم التى عليها المعول فى تربية النابتين، وقد قعد بها العجز، وجنى عليها عدم التربية؟! أم الأب، وأنا أعلم من أكثر الآباء الخلف؟ فيالله من يجيب ندائى؟! أخاطب المعلمين، لأهم على كل حال أقرب إلى الخير، واسمع لندائى.

فيأيها المعلمون: هذه أمتكم قد حطها فساد أخلاقها، أكثر من كل

شيء. بيدكم أمة المستقبل، أخلاق رجالها، فى الناشئين الذين بيدكم زمامهم. عودوهم الفضيلة ما استطعتم، بثوا فيهم من الأخلاق الكريمة بقدر ما تجدون فيهم من الاستعداد، الذى فروا به من أسرهم. ربوا للبلاد والخير والسعادة، رجالا خيرا منا. وليكم الصدق والوفاء بالوعد أول ما تعنون به. إن تفعلوا تنالوا ثواب الله، والله عنده حسن الثواب.

* * *

obeikandl.com

obeikanal.com

الشجاعة

متى اعتدلت القوة الغضبية نشأت عنها فضيلة الشجاعة، التى هى وسط بين الجبن والتهور. فالجبن: عدم الإقدام على المكاره، ولو مع الحاجة، والتهور: الإقدام عليها، بلا حاجة، والشجاعة: الإقدام عليها عند الحاجة. وهذا الإقدام شجاعة، وإن كان فيه حمل النفس على ما تكره. يقول فارس زبيد عمرو بن معد يكرب:

ولما رأيت الخيل زورًا كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرت

فجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت

وقال قطرى بن الفُجاءة، بطل من الخوارج، سُلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى

فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تُطاعى

فصبرآ فى مجال الموت صبرًا فما نيل الخلود بمستطاع

ومن البين، أن الشجاعة خلق فطرى، يُفطر عليه الإنسان، ويوجد به من حين نشأته، وإن كان للتربية تأثير فيه. ومن الخطأ أن يظن أن التربية هى السبب وحدها فى الشجاعة والجبن، فإن الشقيقين وإن كانت تربيتهما واحدة، قد ترى بينهما غاية البعد: هذا شجاع باسل، وهذا جبان يراع. فى البادية، حيث يلقى خلق الشجاعة فى كل فرد تمام التعهد، بمقتضى الحالة البدوية، ويجد من كل بقعة منبتًا طيبًا، تلقى الشجاع البطل، والجبان الذى قعد به

الضعف. وإذا صرفنا النظر عن الإنسان، ووجهناه تلقاء الحيوان، لقينا هذا الفرق. فالأخوان من القطاط الناشئة فى بيت واحد، تجد بينهما تباينًا فى إقدامهما؛ هذا يُراع لنبأة وينكص على عقبيه، وذاك لا ينكف بالزجر، ولا يرعوى بالتهديد. غير أن شجاعة الإنسان إقدام معه روية، أما شجاعة الحيوان فإقدام فقط.

وحاجته إليها شديدة، إذ كيف يتسنى للحيوان الذى يقطن فى القفر، وليس له وزر يلجأ إليه، ولا حصن يؤويه، أن يلى حراسة نفسه وأولاده من اعتداء حيوان آخر، إلا إذا وجد من نفسه إقدامًا يدفعه إلى الدفاع. إن الحيوان الضعيف، إذا لم يكن فى حيطة الإنسان تكلؤه رعايته، ويتكنفه سياج من عنايته، صار فريسة لحيوان أقوى منه. ويا ليت شعرى: ما مقدار الهلع الذى يأخذه، والألم الذى يخامره، إذا خط المقدار على جبينه كلمة الحياة فطال أجله؟؟

وحاجة الإنسان إليها أشد، خصوصًا إذا كان من أهل البداوة، بعيدًا عن المدن والقرى. البدوى فى باديته، قبل احتياجه إلى صارم يهزه فى حراسة مهجته والاحتفاظ بها من عدو هاجم، أو حيوان صائل، يحتاج إلى شجاعة فى قلبه، يتحرك بها هذا السيف. الشجاعة هى مساكن البدو، ومعاقلهم، وأسوارهم، وخنادقهم، وجندهم، وحراسهم، وكل شىء يفتقرون إليه فى حماية ذمارهم. الشجاعة للبدو، بمنزلة أيديهم التى يبطشون بها، وأرجلهم التى يمشون بها وآذانهم التى يسمعون بها، وأعينهم التى يبصرون بها، وألسنتهم التى يتكلمون بها، وقلوبهم التى يفقهون بها. الشجاعة لازمة للبدوى، لزوم القلم للكاتب، والصحيفة للقارئ، والقَدُوم للنجار، والنار للحداد.

وقد كان لـلعرب منها فى باديتهم الحظ الأوفـر، لما اقتضتـه معيشـتهم فيـها. ذلك بأن نابتهم، أول مـا يطرق سمـعه وهو فى مهـده ركض الخيل، وعلك اللجم، وقعـقعة السلاح، وصـياح الأبطال ووقع السيـوف فى الهام. وأؤل ما يقع عليـه بصره فى كل موضع من الخبـاء سيوف معشـره يقطر منها نفوس القـتلى، أو صائكة بـها أثر غب جلائهـا (مثل مـدب النمل يعلو فى الربا). وآونة يرى معشره قد استأسدوا، ولبسوا الحديد، وخرجوا سرعانًا إلى الوغى، فإذا عادوا شم ريح الموت من تلقائهم، ورأى عليهم منه ثيابً حمرًا. فإذا ترعرع ذلك النابت، ووعى ما يقال سـمع حديث قومه دائرًا بين السيوف والرمـاح، والدروع والجـياد، والـكر والفر، والـغارات والحـروب، والظفـر والهزيمة، وإطـراء البطل، وهجاء الجبـان، وعاين مع هذا الطـعن والضرب، والجرح والقتل. فـإذا طُر شاربه، أخذ يتدرب على الحروب ويُعد نفـسه لها، ومشى إليها ولازمـها، لا يفتر عنها لحظة، حتى يكاد طـعامه يكون من لحوم الفـوارس، وشرابه من دمـاء الأبطال. فـإذا آنس من نفـسه الاسـتقـلال دل بشـجاعـته، وجال فـى الفيـافى، وأوغل فى القفـار يلتمس الأوتار القـديمة والحديثة ويرتزق من ظل سيفه، لاجـئًا إليه فى الملمات، وعند الشدائد. هذا إلى كونه بمعزل عن عصا التأديب، بعيدًا عن قهر الملك له، وسلطانه عليه.

لهذا كانت التربية البدوية أساسًا متينًا للشجاعة. كان للأبطال ذكر يبطل دونه كل ذكر، وفخر يتضاءل دونه كل فخر. كانت القبيلة، قويها وضعيفها، تصبح عـزيزة الجانب، موقـرة مرهوبة، من أجل بطل واحـد نبغ فيهـا. وقد بقيت أسـماء أولئكم الأبطال خـالدة. ألم تر كيف تجل العـامة، وفى العـامة شىء من التعويل علـى قوتهم - عنترة مثلاً، ويجلسـون لاستماع أقاصـيصه منصتين؟!

لم يقف العـرب لاستـعمـال ما وُهب لهم من القـوة عند الوسط، بل جاوزوه لبعدهم عن الشرائع والقـوانين، واعتمادهم على القوة فى كل شىء. قال زهير فى معلقته:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

وفى البيت تحريض علـى مجاوزة الوسط، باستعـمال القوة. ومن هذا القبيل قول سعد بن ناشب يمدح بالاستبداد:

ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

بقى العرب صدر الإسلام على شجاعـتهم، بل تضاعفت. وفد عليهم الإسلام بالحرية، والعدل والمساواة، والجهاد، ولا شىء فـيه يخضد شوكتهم، أو يُقلم زظفارهم، مما يـصاحب الملك من الغلبة والقـهر، ويتبـعه من الذلة؛ فأيد الشجاعة على وجه حق بعـيد عن التطرف. قال الله تعالى فى تأييد هذه الفضـيلة وإنذار الجبان بعـقوبة فظيعـة على جبنه «ومن يولهم يومـئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحـيزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصـير». اشرب العـرب، نساؤهـم ورجالهم، شـجاعة حـقة، بما وقـر فى صدورهم من اعتـقادهم ودينهم؛ حتى لقد كان نساؤهم يقـفن خلف صفوف القتال، لتـحريض رجالهن على الحرب، وسوق المنـهزمين إلى الموت. بسالة العرب، هى ذلك الخلـق، الذى باقترانه مع اتحـادهم، توالت فتـوحاتهم فى صدر الإسـلام. امتلأت صـدورهم شجاعـة، وفاض منها شىء أفـرغوه فى قولب من النثر والنظم، وأبرزه فى صور رائعة، تفـعل بالنفوس فعل سيوفهم بالأجسام. قال أبو بكر رضى الله عنه، لخالد بن الوليد: احرص على الموت، توهب لك الحيـاة. وخطب عبد الله بن الزبير، لما بلغـه قتل مصعـب أخيه،

فقال: إن يُقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه. إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف، وإن يُقتل المصعب، فإن فى آل الزبير خلفًا منه. وقال حُصين بن الحمام المرى:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وقال عنترة:

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها: إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك، لا أبا لك، واعلمى إنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقال الحريش بن هلال القريعى:

نعرض للسيوف إذا التقينا وجوهًا لا تُعرض للطام

وإنا لنورد لك شيئًا ما نحن فيه، عن بعض الأمم السالفة: ففى حكومة آتينا، من بلاد اليونان، كان يقضى على الممتنع من قبول عمل لجبنه، بملازمة السوق ثلاثة أيام فى ثياب امرأة. وفى اسبرته، كان يُقضى على الجبان بألا يتزوج اسبرتية، وكل من لقيه يملك ضربه، ولا يرخص للجبان فى دفع ما يصيبه من الأذى، وكان يُحمل مع هذا على لبس ثياب قذرة، أو وضع خِرق ملونة فى لباسه، تشهيرًا له، ويؤذن له فى قص نصف شاربه فقط. وكان الجرمانيون يدفنون الجبان حيًا.

طُوى ذلك البساط بما فوقه، من الجياد المدربة، والأبطال والأسلحة والحروب، ونشر بساط آخر، والناس فوقه نيام، فى حراسة الشرائع

والقوانين، ورجال الشرطة والجند، وفى قصورهم عصى الذهب والفضة، من تلك الرماح والسيوف، التى كانت حشو فساطيطهم، ودرست آثارها، ولم يبق منها بقية تذكر. فى الجند نفسه الذى يلى حراسة البلاد، أوشك السيف أن يتوارى، وخلفه أشياء أخر، فى مقدمتها العلم والنظام. غير أننا مع هذا، لم نزل بعد فى حاجة إلى الإقدام، ولا نجد بدًا من معونته لنا فى جميع أمورنا.

العالم إذا لم يجد فى نفسه إقدامًا، فات الناس فى أكثر المواضع أن ينتفعوا بعلمه، وذو الرأى يفوتهم أن ينتفعوا برأيه؛ وإذا رأيت أمثال هؤلاء، حسبت عالمهم جاهلاً، وبليغهم أعجم، ومعلمهم الماهر فى حاجة إلى الكُتَّاب. إن الذين تعوذهم الشجاعة، أولى الناس بنقص أعمارهم، ولا يمضى عليه وقت بدون أن يذوقوا من جبنهم عذابًا أليمًا، لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخفف عنهم من العذاب. كل الحقوق التى لا يفصل فيها القانون - وهى مما لا يتناهى - وبعض التى يفصل فيها، للأقوياء، أما المستضعفون فلا حقوق لهم. العالم مثلاً إذا لم يجد من نفسه إقدامًا يدفعه إلى تطلب مرتبته، أحدق بها الجهال، فصارت إلى أجرئهم.

إذا ظفر القوى بضعف منك، فغلبك على حقك فى المرة الأولى، طالبك به فى المرة الثانية، يقول: حقى! الشجاعة أساس الحرية والاستقلال، وكثير غيرهما من الفضائل. أكثر هذا العالم مغزى بناقص الأقدام، وذنبه عند الناس ضعفه وعجزه عن دفع الشر بالشر.

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى

إن فى الناس كثيرين يعرفون الحق، ولكن الذى يصدع به نفر قليل،

فكن أنت من النفر الذى يصدع بالحق. كن كالإمام، الشيخ محمد عبده، لما نادى جهرة بفساد الكثير مما عليه الأزهر والأزهريون، ووجه قواه نحو إصلاحهم، رغم ما لقى من ضوضائهم، وتألبهم هم ومن فى طبقتهم. كن كقاسم بك أمين، لما دعا جهرة إلى تربية البنات، فلقى جلبة من الذين يُحكمون خيالهم فى صغير القضايا وكبيرها، ولا يرثون لما فيه أمتهم، وهم أكثر الناس، فلم يثنه ذلك الصياح عن مثابرته على الجهر بما يعتقد، بل وقف موقف البطل، وعزز كتابه الأول بثان أيد به حجته، كأنما كان ذلك الصخب إغراء له.

رد الطرف تر لهما أضرابًا من الذين يقولون ما يعتقدون، ولا يهابون أحدًا فى قول الحق، ومثل هؤلاء للحق نعم النصير.

الأمة فى حاجة شديدة إلى الشجاعة، حتى تبقى مرهوبة عزيزة الجانب، وإلا ضاعت حقوقها، ومُحى اسمها من سجل الأمم. مثل الأمم فى عدم إبقائها على الضعيف منها، واعتداء بعضها على بعض، مثل الأشخاص؛ فإن لم تكن فى منعة بطلت وحدتها ومسخت صورتها، وصارت إلى الذل. إن الأمم التى قعد بها العجز، لقصورها عن الشجاعة والعلم، لا يكون لها حقوق بين الأمم، وتصبح عرضة لمس شئونها وصيرورتها طعمة لها. أما الأمم القوية، فهى التى تحفظ حقوقها، وتنال من غيرها بقدر ما شاءت وشاء لها أعداؤها. هذه أمة اليابان، لما ظهر لها من قوة الشجاعة والعلم بعد حروبها الأخيرة ما ظهر، هبت من رقودها، ونشطت من خمولها، بعد أن كانت أمام الناس كغيرها من الأمم الخامدة، وأخذت الدول

القوية يهيئن لها مقعدًا بين مـقاعدهم. إن الظفر الذى أصابه اليابانيون سيكون بلا شك سببًا فى بُعد همتهم، وتطلعهم إلى أرقى مما كانوا يتطلعون إليه.

لا خير فى حـياة يخالطها الذل. لا خيـر فى وجه يقطر منه الرق، وإن ملئت الكرش مع تلك العبودية لحمًا. أجل قصير مع لشرف خير من الذل مع تراخى الأجل. الخلود يستوقفك، وإنك ميت وإنهم مـيتون. سقها إلى الموت إذا دعت الحاجة، فلا خير لك فيهـا إذا جبنت. ما أعزها وأشرفها إذا عملت بقول ابن هلال:

نعرض للسيوف إذا التقينا وجوهًا لا تُعرض للطام

أيها المعلمون! إنكم فى تلاميذكم رعاة، وكل راع مسئول عن رعيته. لا يذهبن بحلمكم أبهة الـولاية، والاستهانة بشـأن التلميذ، إلى أن تحـقروه عند كل شىء لا يروقكم منه، فتـأخذوه بالانتهـار والعقوبات الصـارمة؛ لأن هذا يفل من شوكته ويميت من شجاعته، ويقـتل فيه الفضيلة. إن كنتم ملوكًا عليه أو قياصرة، فـاعلموا أن الملوك والقياصرة يغضـون عن شىء من سيادتهم فى صالح رعاياهم. إنى لا أعلم أحدًا يقـتل خُلقًا فى شخص، أحق بسخط الله وعذابه، ممن يعامل نابتًـا معاملة يقتل بها إقدامـه؛ لأنه بقتله يلقى بالشخص فى بحبوحة الشقاء، ويسلبه روحًا، وإن أبقاه جسمًا يتحرك. واستغفر الله! إن القاتل لـيقتل الشـخص فيـذيقه طعم الموت مـرة واحدة، وهذا بسلبـه إقدام الشخص، يـذيقه طعم الموت مرارًا. ألـم تر أنه يجد مرارة الموت كـلما أُهين وقعد به الجبن عن دفع تلك الإهانة؟!

حدثوا صـبيانكم بسـير الشجعـان، وعودوهم الجهـر بالحق، وأقرئوهم

تراجم الرجال الذين يصدعون بالحق، وإن لقوا من الجهر ما لقوا، فإنى أقطع بأن السير من أقوى العوامل فى نفوسهم.

إن كنتم مسئولين عما فى برنامج الدروس، فأنتم مسئولون أمام الله تعالى عن أولئكم النابتين، وعليكم رقيب من ضمائركم. إن برنامج الدروس لا يبغى غير إرشادكم إلى طرق الخير، وحسبكم أن تلتمسوا الخير أولا من بث الفضيلة فى نفوس التلاميذ.

وأنتم أيها الآباء القساة، الذين يحاولون تميل أبنائهم بالسياط والضغط! هونوا على أنفسكم، واعلموا أنكم تفسدون فيهم أكثر مما تصلحون!

وأنتم أيها الشيوخ، والكهول، والشبان! عليكم بعلاج أنفسكم، من تلكم البقايا التى غادرها ظلم الحكومات السالفة فى صدوركم. عليكم بحملها على الأقدام، وتدريبها عليه، بقدر ما تجدون فيكم من العزائم، فكل تدريب يبقى فى النفس منه أثر خالد. ليس هذا ببدع مع قول سبنسر، كل شىء يحصل فى المادة يترك فيها أثرًا لا يزول.

***

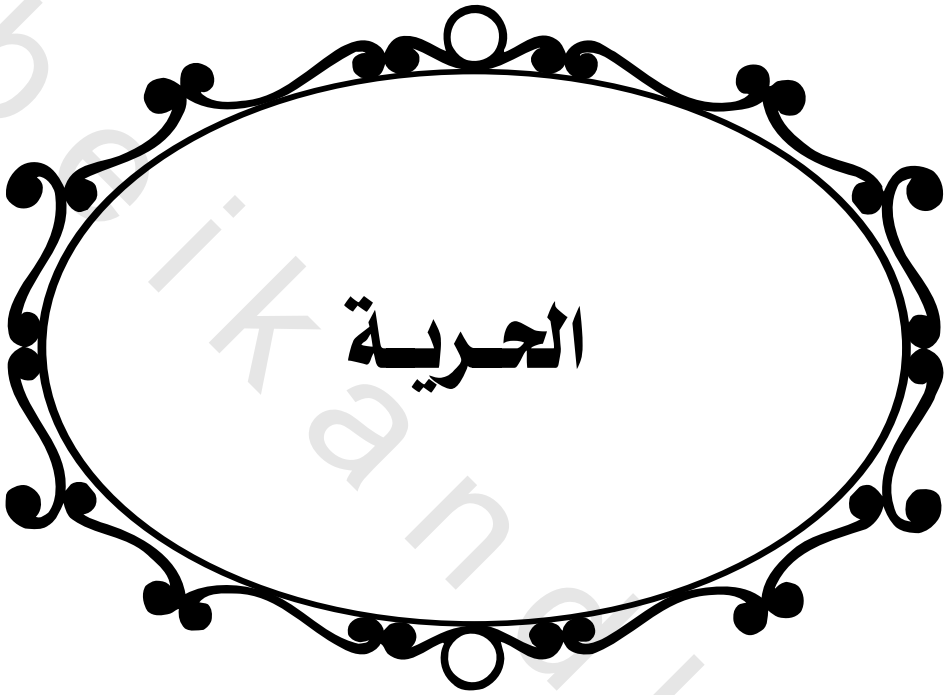

obeikanal.com

الحرية

الحرية لها معنيان: الأول للحرية المتداولة بين الجمهور، والثانى لها عند الباحثين فى النفس. فالحرية بالمعنى الأول: كون الشخص مطلق التصرف فيما ينبغى، أو كون الأمة تحت سلطة القانون، لا تحت سلطة شخص. ومن الخطل أن يظن أنها إطلاق إرادة الشخص فى كل شىء.

الحرية بهذا المعنى الأول، سبب فى حراسة دماء الأمة وأموالها، وكفيل لها بعدم وقوعها تحت تسلط السعاية والطمع، والغاية السافلة، والأغراض الشخصية وأساس تقدمها فى كل شىء. أسائلك فقل لى، بربك: إذا كان الحاكم شحيحًا حريصًا على جمع المال، لا يرقب فى اقتائه إلاً ولا ذمة، فإلى أى حال يكون مصير الأمة؟! إنه لم يبق على وجه الأرض من يرضى بالحكومات الشخصية، إلا الأذلاء، الذين قُتلت فيهم الحمية والإباء، فصاروا إلى الاستسلام فى كل شىء. ألا ترى الإنسان فى جميع بقاع الأرض مغزى بطلبها، لأنها شىء ثمين لديه تبعًا لما له فى ذاته؟ ومن ألقى عن كاهله نير الاستعباد والقهر، فقد حط عن نفسه حملاً ثقيلاً على الحُر! إنك تجد الطوائف كلها يسعون فى طلب الحرية، سواء كانوا فى مراتب عالية أو مهن حقيرة. الخادم مثلاً يحاول أن يخرج من القيود التى جعله فيها كونه خادمًا. لاحظت فى القرى أن نهاية أكثر الخدم أن يذروا الخدمة مع ما يكتنفها من خفض العيش، ويصيروا إلى غيرها من الأعمال التى تحفها المتاعب وخشونة العيش. ذلك لأن الحرية شىء نفيس، يضحى فى طريقه كل شىء، ويحتمل معه كل شىء.

الحصان الناشط، بل الحمار نفسه، متى توالى عليك سوطك زاد فى العدو وقمص، كأنه يحاول أن يلقيك من فوق ظهره، ويلجأ إلى ساحة الحرية الفسيحة.

الحرية تكون فى الفكر، والقول، والعمل؛ فلك أن تقول وتفعل كل شىء، مع مراعاة الشرع والأدب، ومع المشورة، وإلا طلبت الحرية فوقعت فى الاستبداد. أما حرية الفكر، فيأتيك الكلام عليها فى الكلام على الاستقلال، فإن البابين فى الكثير شىء واحد.

ومما هو جدير بالتبصر، أن يأخذ الناس بالحزم فى أعمالهم التى يرونها لهم بمقتضى حريتهم، وإلا خلطوا، وعاد عليهم عدم التبصر بالضرر.

فالمحامى الذى له حق الدفاع بحرية تامة، إذا هذى فى كلامه، وصار إلى البذاءة والسفاهة، لا يلبث حتى يُسلب حق القول، ويُمنع حتى من الدفاع العادل، ويُطرد من الجلسة. والطالب الذى له حق لخروج من صحن المدرسة فى أوقات الرياضة والفراغ من الدرس، إذا ساقه هذا إلى صرف شىء من زمن الدرس خارج المدرسة، لا يلبث حتى يُحظر عليه الخروج من صحنها إلا بإذن، وربما جر هذا إلى حظر الخروج على الطلبة كلهم. فمجاوزة الحدود وفض القيود سعى فى التضييق.

مخالفة الآداب ليست من الحرية فى شىء، مخالفة الشرائع ليست من الحرية فى شىء، عدم توقير الكبار ليس من الحرية فى شىء، كل هذا مما لا ينبغى لك أن تحافظ على حقك فى كل شىء، ولكن مع احترام سنة الأدب.

يظهر أنه لا ينبغى رفع القيود، مرة واحدة، عن الأمم التى طال عليها أمد الاستبداد، ولم يكن لها حظ من التربية؛ لأنه ليس لها وازع من أخلاقها

وآدابها وتربيتها، بل من صالحهـا أن يُفك الحجر، وتوضع القوانين لها بمقدار تدرجها فى التربية، حتى تصير فى حـرية كاملة. وإذا رفعت عنها القيود مرة واحدة، عشـيت كما يعشى الذى طال مكثه فى الظلمـة، ثم دفع به فجأة فى ضوء شديد، ولا تلبث حتى يلحقهـا منها ضرر؛ كطفل تعطيه سكينًا يلهو به فإنك لا تلبث حتى تسـمع عولته، وما هو إلا أن تبـصره، حتى ترى السكين أصاب عضوًا من أعضائه.

فلنجتـهد فى إقناع أنفسنا هذه، الـتى كاد الظلم يقضى عليـها، فى أن نكون أحرارًا، فى أفكارنا، وأقوالنا، وأفعـالنا، ولكن مع الأدب. لنجتهد ألا تكون نفوسنا التى بين جنوبنا، وقد أماتهـا الظلم، أكبر عائق لنا عن الحرية. مـا دمنا محـافظين على الشرع والأدب، فـلا سلطان علينا لأحـد، وإن كلله التاج، وإلا فنحن عبيد لكل أحد. لا ينبغى لنا أن نقف بين يدى أحد موقف الخشوع والرهبة إلا بين يدى الله تعالى.

والحـرية بالمعنى الثـانى، خلـوص النفس فى تصـرفـاتهـا، من هواها والانفعالات الوقتية، وخضوعها فى كل فعل للعقل، والغاية الصحيحة. وقد كتب بولزن الألمانى عـن هذه الحرية، قولاً نافـعًا، فى كتـابه نظام الأخلاق، رأيت أن أعرب عنه ما يأتى؛ قال:

من هذا يتـضح أن الحرية ليـست أمرًا غـريزيًا، بل هى شىء كسـبى، وصلت إليه الأجيال المتعاقبـة تدريجًا، وكذلك يصل إليه الأشخاص. لا يولد الطفل بحرية تامة، بل يولد كـالحيوان، خاضعًا للبواعث الحيـوانية، والأميال الوقتـية، ثم يرتقى بالتـدريج، معتـمدًا فى ارتقـائه على التربيـة، إلى الحرية الكاملة. والناس مختلفون فى الإرادة التى يصلون إليـها، فمنهم من يبقى فى

رتبة منحطة قريبًا من الحيوان، بحيث يقضى حياته تحت سلطان الشهوة والميل، ومنهم من يصل إلى درجة تشرئب إليها الأعناق، بحيث لا يعمل شيئًا صغيرًا كان أو كبيرًا ولا يتركه إلا عن ترو وإرادة حقة. كما أن خضوع الشخص لشهواته وأمياله أمر معيب شائن، فتذليله للطبيعة وتسلطه عليها، فيه من المشاق ما فيه. ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها؟ إذ من البين أن الإنسان بين الحيوان والعقل الصرف. إذن فهل يمكن الإنسان أن يصوغ أخلاقه كما يشاء، ويصور نفسه كما يهوى؟ نعم لأنه بلا شك معد لأن يربيها. يمكنه أن يصوغها ظاهرًا وباطنًا كما يشاء، حتى يؤهلها لإدراك الكمال الذى ينظر إليه. يمكنه أن يُنظم أمياله الطبيعية. يمكنه أن يقهرها ويغلب عليها، حتى يدعها بلا حركة. غير أن هذا مما لا يدرك بالتمنى، بل بالجد المتواصل، والوسائل النافعة، كالوسائل التى تتخذ عند تدريب الجسم على قبول العادة. فإذا اضطجع الإنسان، وطال عليه الوقت وأرق، لا يستطيع أن يجلب النوم بمجرد إرادته، بل إنما يستطيع جلبه فى أوقاته، بواسطة تعديل مأكله ومشربه وعمله. يروى أن يمستين، كانت موهبته من النطق ناقصة، لقصور فيه وخفاء. وقد أراد مع هذا أن يكون خطيبًا، فلم يستطع بمجرد هذه الإرادة تقويم مخارج الحروف بالغلبة، بل عمد إلى التمرين من طرق شتى، حتى استخدم الطبيعة فى مطلبه. بمثل هذا يمكنك تذليل الطبيعة، فإذا آنس امرؤ من نفسه حدة شديدة، وقصد علاجها منها، لا يستطيع بمجرد المعرفة والقصد، أن يدفع الغضب عند عروضه عليه بعد ذلك، بل يكونان سببًا فى حصوله على الوسائل الموافقة، التى تزيل تلك الحدة تدريجًا. يبتعد الإنسان عن الأسباب التى تهيج غضبه، فإنه إذا سكت عنه الغضب زمنًا، اضمحل تهيؤه له. يملأ خاطره أمثلة لما ينشأ عن الغضب من الآثار السيئة، ويديم النظر

فى غاية قهر الشخص لنفسه، وغلبتـه عليها، فحسب. قد اعتاد بعض الناس تلاوة حكمة أو شىء من الدين متى ثار غضـبه. وإذن فلا نشك أن الشخص يستطيـع أن يحدث فى نفسـه تغييـراً بواسطة إرادته. يستطيع أن يـقتل فيـها الدواعى القوية بالإباء عن عمل مـا تقتضيه، كمـا يستطيع أن يحيى الدواعى الميتة بروح من العمل، فإن العادة - كما قيل - طبيعة ثانية.

هذا، ومن جـهـة ثانيـة، يقـال: إن مـن الواجب أولاً، أن يكون فى الشخص هذا الأسـاس الذى يبنى عليه تغـيير أخلاقـه، وليس من الممكن أن يُحصله لنفـسه بإرادته، فإنه نفس إرادته. فـقط يتأتى له بما عنده من الإرادة، تحصيل الأخلاق الكسبية مع توالى الأيـام. وبهذا الاعتبار يكون ما ذهب إليه «شبـنهور» من أن الأخـلاق لا تتغـير، صـحيحًـا. فالذى لا يـشعر بـضرر الغضب، ولا بعار الجبن والكذب، وليس لـديه الإرادة التى تدفعه إلى عكس ذلك، لا يسـتطيع بحكم الضـرورة، أن يعـود نفـسـه الحلم، والشـجاعـة، والصدق. أما إذا أراد أن تغيير طبيعة الإنسان وخطته غير ممكن، فهو مخطئ، وليس مذهبـه خطأ فقط، بل خطر، لأه يوقع فى اليأس. وبالجـملة ينبغى أن يقـال: من أراد أن يصيـر امـرأ آخر أمكنه ذلك، ومـا عليـه إلا أن يعتـصم بالأسباب القوية، والوسائ النافعة، لا بالآمال الكاذبة والأمانى.

***

obeikandl.com

الاستقلال

هو تعويل الشخص على نفسه فيما يمسه بقدر الطاقة. فإذا كنت طالبًا، كلما ألقى عليه درس اشتغل بحفظه كما يحفظ تلميذ الكُتَّاب، ولا عمل لك فيه غير أن تحكيه من بعد ذلك، كما يفعل الببغاء، فلست بمستقل. وإذا وهب الله تعالى لك ذكاءً نافذًا، تفهم به ما يقال فى أصول الدين، ومع هذا تصير إلى الأخذ بكل ما يصل إليك من الآراء فيه والتفسير، فلست بمستقل. كذلك شأنك فى المسائل العامة: فإذا خاض الجمهور فى موضوع عندك فيه رأى، فوكلت الأمر إليهم، ولم تبد رأيك، فلست بمستقل. إذا كانت أمتك مركبة من أفراد كلهم مثلك متواكلون لم يكن هناك معنى لكونها أمة.

بالاستقلال يرقى الشخص، ويُنتفع به فى كل عمل يوكل إليه، بقدر ما وُهب له من الاستعداد؛ فإن كان يشتغل فى العلم مثلا فتوقع منه مصلحًا بقدر استعداده. مثل المستقل على ضعف استعداده، كالجواد يملك قليلاً من المال، فيفيد منه ويستفيد. بخلاف الوَكِل المقلد، فإنه على تمام ستعداده، كالبخيل يملك كنزًا فيرصد عليه الأبواب، ويغلقها دون المعوزين ونفسه، فلا يفيد ولا يستفيد.

فذاك الذى إن عاش لا يُعتنى به وإن مات لم تحزن عليه أقاربه

بالاستقلال ترقى الأمة أيضًا، فإن الأمة متى كثر فيها الأفراد المستقلون حقيقة، فتلكم أمة العلم والعلماء، تلكم أمة الصناعة والصناع، تلكم أمة الحياة؛ كل فرد من أفرادها، تتدفق منه حياة وعناية بجميع شئونها. يريك من نفسه فردًا واحدًا، كأنما أفرغت فيه أمة بأسرها. فالأمة المستقلة كأنها مجموع

أمم، وإن قل عددها. كم آلات يديرها ابخار اخترعتها هاته الأمم المستقلة، آلات للطحن وأخرى لرفع المياه، ومثلها للسير فى البر والبحر بما ينفع الناس، وجملة منها للأشغال المختلفة، بل من آلات تديرها الكهرباء! كل هذا وصلت إليه الأمم المستقلة حتى كأنها هى المخاطبة بقوله تعالى: «خلق لكم ما فى الأرض جميعًا». ذُقنا الراحة من تعبها، والنوم من سهرها، فلها منا الشكر.

بالتقليد يذهب استعداد الأشخاص باطلاً، ويُستعملون فى العالم استعمال لات بطيئة ضعيفة، وهم مع هذا يعملون بجميع قواهم لمعارضة كل جديد، وإبطال كل إصلاح، وهم الأعداء الألداء للمصلحين.

إنه ليجدر باشاعر أن يقول: ليست أجسام المتواكلين المقلدين التى نراها، هياكل تشرق بنفوس إنسانية، إنما هى مقابر مظلمة، توارت فيها تلك النفوس بعد أن أماتتها التربية. كذلك الأمم المتواكلة لا يرجى لها تقدم فى أمورها، ما دامت متواكلة، ولا فى صنائعها، ولا يكون لها مخترعات، ولا آثار تستقيم بها حياتها، ويطيب بها ذكرها بين الأمم. تعيش بينها فلا تسمع لها ركزًا، مع صيحة الأمم، كأنها جنازة والأمم حولها وقوف للصلاة عليها. لول لم يكن على الأرض إلا أمثال هذه الأمم المتواكلة المقلدة، لاستمر الإنسان فى ضلاله القديم؛ يصيب بعض النباتات، ويسطو على بعض الحيوانات، يطعم منها بلا معالجة ويتخذ له لباسًا من جلودها، يتقى به الجر والبرد، ويأوى إلى الكهوف والغابات، ويصنع له سلاحًا من حجر يقاتل به، تائهًا هائمًا فى الموامى والقفار؛ ولو نزل عليه مع ذلك دين سماوى لعبث به واتخذه للبركة، كما صنع نحن المصريين بديننا.

ويُفطر النابت على التقليد فى جميع أموره، ضرورة قصوره وعجزه فى كل شىء. فإذا شب ووجد قدرة فى نفسه وجسمه، شب حرًا خالصًا، أو عبدًا قنًا، تبعًا لما يصادف من التربية والمخالطة. ويظهر أن الاستعداد للاستقلال أرجح، لأنه المناسب للفطرة السليمة والإرادة الحرة. وكثيرًا ما شاهدنا رجوع الشخص إلى نوع من الاستقلال، بعد أن صادف تعليمً كرع فيه من التقليد، وطبع عليه بطابع من العبودية. اللهم إلا إذا طال العهد على ذلك التقليد، حتى مُسخت فى الشخص فطرته السليمة، فإنه قلما يفيد فيه العلاج، ويكون مثله كمثل المريض بالسل، إذا تمكن منه المرض، فإنه قاتله ولا دواء له.

أمورنا كلها مظاهر لعدم استقلالنا: فتش عن صنائعنا ومصنوعاتنا، تجدها قد توالت عليها القرون، ولم يدر فى خلدنا التماس أدوات أنفع منها. فهذا محراث الزارع، وساقيته، ونورجه، قد طال عليها العهد، وغيرها من الأدوات كذلك، إلا ما نشتريه بالثمن الغالى. ورثنا هذه الصناعات التى بأيدينا، عن قدماء المصريين، كما ورثنا عنهم الوقوف عند حال لا نطلب أرقى منها. يقول فيبر المؤرخ الألمانى، عند حديثه عما كان للمصريين من العلوم والصنائع: ولكن لعنة الظلم، وتأثير القسيسين، أثقت كواهلهم، واقتضت أن لبث المصريون أحقابًا، لا يجاوزون درجتهم التى رقوا فيها حتى كمل لهم غيرهم من الأمم ما ابتدءوا فيه.

فتش عن مؤلفاتنا وأحوالها، تر أن الذى يقدم لك اليوم مؤلفًا فى أى علم، إنما يقدم لك نسخة مما وضع المؤلف الأول. دار الفلك دورات عديدة، وذلك المؤلف بوضعه ومسائله لم يدر مه. نحن إلى روح جديد، وإصلاح من كل مؤلف، أحوج منا إلى إبقاء ما كان على ما كان.

فتش عن أمثلة الكتب نفسها، تر، والعهد طويل، لكتب النحو أمثلة لا تتغير، ولكتب الفقه أمثلة، ولكتب البلاغة أمثلة، وهكذا، وبقية هذا الكتاب لا تخالف بقية ذلك، إلا بتطويل أو اختصار. هل معنى هذا، إلا أن نفرًا من الأول وضعوا للعلوم مؤلفات بأمثلتها، ثم تركوها فى المهد، فشابت وهى أطفال؟!

أخبرنى زميل لى كان يدرس علم البلاغة، أنه اهتم بجمع كتبها، فجمع كل المعروف منها، ثم قرأها فى بعض المواضع، فرآها ترجع إلى كتابين أو ثلاثة، فاستغنى بالنظر فيها عن جميع الكتب.

فتش فى الجمعيات عندنا، تر أن كل جمعية كبيرة لا يزيد عدد العاملين فيها عن نسبة لا تذكر، والباقون عملهم أن يقولوا «نعم، وهكذا كنت أرى، وهذا ختمى». من نحو عشرين سنة، كنت أتردد على المحاكم، وأحضر جلساتها، فكنت أرى بين قضاتها شيخًا أو اثنين، يظهر من حالهما، والنزاع بين الأخصام شديد، أنهما بمعزل عن كل ما يقال. أبصرت أحدهما فى أثناء الدفاع يهوم، منظر لا أنساه من رجل عهد إليه الفصل بين الناس، والقضاء عليهم، بالموت أو الحياة.

بل فتش على رأينا فى أن يفهم الإنسان ما يقال ويعمل به، تر أن الرأى العام لا يبيح هذا. ألم يكن الاجتهاد فى المسائل غير جائز؟! أليس معنى هذا أن كل ما تجود به الأفكار من طرق الإرشاد إلى الصواب والخير لا يُقبل، بل هو مردود على صحبه؟!

فى سنة ١٨٨٧ قُبِلت طالبًا فى مدرسة دار العلوم، فوجدت بين معلميها أستاذًا فاضلاً، لا يجهله كثير من الناس، اسمه «الشيخ حسين

المرصفى»، لم أر من قبل هذا الشيخ رجلاً يضاهيه فى فضله واستقلاله، إلا واحدًا أو اثنين. من كتبه التى ألفها «الوسيلة الأدبية» كتاب أتى فيه على بعض العلوم العربية، فى أسلوب لا يألفه عامة العلماء. عدل فى تعريف الماهيات كلها أو بعضها، عن المتداولة لأمر عرض له، فكانت هذه التعاريف، وهى مظهر من مظاهر استقلاله، سببًا للسخر منه. لم يقابل عمله برد فُنِّد فيه ما ذهب إليه، كما هو الواجب، بل بالضوضاء والتنكيت والضحك، كما يُفعل عندنا إزاء كل حقيقة لا يألفها الناس.

كنت وأنا شاب مبتدئ فى الدرس، أعجب من أن يُمتدح طالب بتلقيه من فلان أو فلان. ذلك أنى كنت لا أرى من هذا أو ذاك غير النسخة التى يمسكها بيده؛ حتى حضرت درس الإمام الشيخ محمد عبده، الذى كان يلقيه سنة ٨٨ فى التفسير، بجامع عابدين. هنالك أيقنت وفهمت، أن للشيخ وجودًا غير وجود النسخة التى بيده، وأن لنسبة التلميذ إلى شيخ، معنى. نعم فإن العلم يصير إلى الحياة إذا صدر من نفوس حية مستقلة.

الملعم الذى يعوّد تلاميذه تنزيه أى شىء كان عن الخطأ، غير القرآن والحديث الثابت، الخاص بالدين، ولا يوجه فكرهم إلى تمييز الحق من الباطل، وأقوال الناس كلهم فيها الحق والباطل، يكون قد ذبحهم بغير سكين، وجنى عليهم وعلى أممهم جناية.

لا ينبغى لكم أيها الطلاب أن يقعد بكم العجز، فترضوا بحفظ عبارات المعلم، التى يلقيها عليكم، ويكون مثلكم كصبيان المكتب، فى حفظ ما يكتبون من القرآن فى ألواحهم. إذا زعمتم أن هذا ينفعكم فى نحو النحو

والصرف. لأنها أمور ترجع إلى اللفظ، فلا شبهة لكم أن تزعموا هذا الزعم فى درس الأخلاق، لأنه يرجع إلى نفوسكم.

يهمنى أولاً، أن يصل صوتى إلى أفئدتكم، ويحدث فيها أثرًا، حتى تعملوا جهدكم على تجنب الرذيلة، وكسب الفضيلة. فإن هذا كما قلت لكم من قبل مبدأ سعادتكم وسعادة أمتكم. ثم أريد مع هذا حضور المعانى فى أنفسكم، والتعبير عنها بعبارات بينة. على أنى أطلب منكم أن تكون أمثلتكم من ثمرات فهمكم وتأملكم، لا مما أمليه أو ألقيه عليكم فى الدرس. ومن أصاب منكم أمثلة أكثر وأصح، كان هذا دليلاً على صدق فهمه، وصحة تأمله.

أيها الطلاب! إن كل من سبقوكم، غير الرسل فى رسالاتهم، فى قولهم الصواب والخطأ. أيها الطلاب! ربما يكون الله تعالى قد وهب لبعضكم تأملاً أصح، وفكرًا أنفذ فى الأمور ممن سبقه، فلا يذهبن بكم التقليد إلى تعطيل أفكاركم. إن لم تكونوا خيرًا منهم على الإطلاق، فقد يخطئون عند قول المسألة، وتصيبون عند فهمها، وقد يقع الخطأ فى النقل. إن الله تعالى لم يهب لكم هذه القوى الفكرية، إلا لتعملوها جهدكم، حتى تنتفعوا بها وينتفع الناس، فانقدوا كل ما ترونه بقدر ما تصلون إليه؛ وإن لم تفعلوا فقد قصرتم فى التماس الكمال، الذى سهله الله لكم، وهيأكم لتحصيله، وظلمتم.

تلقى المسلمون أولاً دينهم بقوة، واتخذوه قانونًا يعملون به، فسعدوا، وجعلناه للبركة وللتمائم فشقينا.

اخلعوا عنكم أيها الشباب هذه الثياب البالية، فإنها لا تصلح لدنياكم.

اخلعوا عنكم هذه الصياب البالية، فإنها لا تصلح لآخرتكم.

اخلعوا هذه الثياب البالية، أن تقتلكم بسـريان سمومها إلى أجسامكم، كما قتلت من قبلكم خلقًا كثيرين.

اخلعـوا عنـكم ثوب الكذب، وخلف الوعـد، والخـيـانة، والغش، والنفاق، والرياء، والتواكل، والكسل، والحسد، والحقد، والظلم.

عليكم بالأخـلاق التى يدعـوكم إليهـا دينكم، عليكم بالأخـلاق التى سعدت بها الأمة صدر الإسلام، كما سعدت بها أمم كثيرة.

دونكم ثوب الإسلام، فالبسوه قشيبًا، كما لبسه المسلمون الأُول.

عليكم بالصدق، علـيكم بالصدق، عليكم بالصدق، والوفـاء بالوعد، والأمانة، والاستقامة، ومطابقة السر للعـلانية، والاستقلال، والجد، وتطهير القلوب من الحسد والحقد، وعليكم بالعدل والشكر.

وهذه، أيها الطلاب، يدى، أعـاهدكم الله على تجنب الرذيلة، والأخذ بالفضـيلة ما استطعت. فـعاهدوا الله ثم عاهـدونى، تدرك نحن وهذه الأمة خيرًا جزيلاً فى الدنيا والآخرة.

* * *

obeikandl.com

علو الهمة

فى الجامع الصغير، من رواية الطبرانى، إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها، ويكره سفاسفها. وعلو الهمة هو تعلق النفس بالمطالب الرفيعة، على وجه التحصيل. وهو، كالصبر، أساس الأعمال الكبيرة، غير أن علو الهمة بمنزلة السيد الآمر، والصبر بمنزلة الخادم المأمور. أو علو الهمة بمثابة الملك، والصبر كوزير له. المرء متى تعلقت نفسه بالمطلب الرفيع تعلقًا صحيحًا، اقترن هذا التعلق بالعمل، وليس بعد العمل إلا النجاح. على أنه إذا لم ينل الكبير الهمة طلبته فلا أقل من الاقتراب منها؛ كما أن الذى يجمع قوته لوثب جدول، إن لم تتصل به وصبته إلى الشط الآخر، وقعت رجله قريبًا منه. فالطالب الذى تتعلق همته تعلقًا حقًا بأن يصير فى الاختبار أول الطلبة يصير أولهم، وإن اعتاقه بعض الأمور، كان الثانى أو الثالث.

وليس علو الهمة مما تعود ثمرته على الشخص فقط، بل تعود على الناس أيضًا. فدارس الطبيعة، إن رفعت به همة عالية إلى أن يصبح فى صف المخترعين، اجتنى هو والناس ثمرة اختراعه. والطبيب الذى لا يرضى من مزاولة الطب بأن يأكل ويجمع المال، بل يحاول أن يأتى فى صناعته بعمل كبير، وأثر باق، كما ينال درجة عالية ينتفع به الناس أيضًا. وهكذا.

وإجمال ما أردت بسطه: مَنْ وصل إلى درجة تطيب بها نفس مثله عادة فلم تطب نفسه بالركون إليها، بل دفعت به نفس أبية فجاوزها إلى أرقى منها، كان عالى الهمة، وعاد علو همته عليه وعلى الناس بالخير.

نعم، الذى يجمع نفسه للأمر الكبير يصل إليه أو يكاد. ذلك أن النفس تتهيأ للمطلب الذى تحاوله، وتثور فيه عزيمة تحكيه.

كما أن الذى ينوى تشييد دار يستعد لها، فيجمع لها جصًا وآجرًا وخشبًا، كما صورها فى نفسه، صغيرة أو كبيرة.

ألم تر أنك إذا نويت السفر يومين، وجدت فيك نشاطًا لا يخمد، وعزيمة لا تفتر، إلا فى اليوم الثانى قبيل أن تُشارف مقصدك؟ أما إذا نويت السفر ساعتين فقط، نفد نشاطك، وأدركك الملل فى الساعة الثانية. من كان طريقه إلى طنطا، أخذ نشاطه فى النفاد بعد مجاوزة بنها. أما من عقد النية على الإسكندرية، فإنه يجتاز طنطا وهو ناشط.

إذا هيأت نفسك لمقابلة الوزير، كان من الصعب عليك أن تقابل السلطان. أما إذا أعددتها لمقابلة السلطان، فما أهون الأمر عليك إذ تدعى لمقابلة الوزير.

نفسك معدة للانطباق على مطلب مختلفة، وغايات متباينة تقع على كل منها، كما قد يقع الحافر على الحافر.

النفس الإنسانية «كالأستك» تنقيض وتتمدد، فتنطبق على أشياء كثيرة تختلف مقاديرها.

عليك إذا كنت فى عمل أن تطلب منه الأرقى، ولا تَطِب نفسًا بما يرضى به الأوساط، فإن الأوساط مقصورون قانعون بما لا تطيب به النفوس الأبية.

الأوساط من بعض الأوجه علة على الأكابر، فارفع نفسك عن

الأوساط. اعـمل لأن تكون أسدًا يفتـرس، ثم يدع من فريسـته بقيـة تأكلها الثعالب، ولا تكن ثعلبًا، يتلمس ما يُبقى الأسد.

إذا كنت معلمًا، فحاول أن تكون مـعلمًا عالى النفس، نابهًا، ولا تكن معلمًا خاملاً مقصرًا.

عليك، إذا مضت السنون، بجمع ما أثمرت مزاولاتك فى كتاب، يلجأ إليه الضعفاء القاصرون؛ ولا تكن فى جميع أوقاتك عيلاً على غيرك.

إن نفسك هذه التى بين جنبـيك مشحونـة بالنفائس، تثيرها فـيك همة عالية، كما يُستثار التبر بالنبش.

واعلم بأن التبر فى عرق الثرى خافٍ إلى أن يُستثار بنبشه

اعتزل الراحة، وانبذ ما يهواه جـسمك ظهريا، إن اعترض لك ما يهوى الجسم، فى طريق مطلبك العالى. ومن خطب الحـسناء لم يغلها مهر. بل إذا كنت فى طبقة، وآنست من نفسـك استعدادًا لأن تصير عضوًا نافـعًا فى طبقة أخرى، فلا يـقعدن بك العجـز عن السعى فى تحقيق أمـانيك. وعليك، بعد التبصر والحزم، ألا تسمع لقول أكثر الناس، فإنهم يعجزونك، وينصحون لك بألا تفعل.

إن فيك استعدادًا، إذا لم تجد فيه عدة لكل عمل يباشره الناس، وجدت فيه عدة لأكثر الأعمال. من كلام ابن الوردى:

لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل

وقال ريلـندز المصور الإنجليـزى: يمكن كل امرئ أن يصـير مـصورًا أو نقاشًا. وقال بكاريا السياسى الطليانى: إن كل الناس يمكنهم أن يكونوا خطباء

أو شعـراء. وقال بعض العلمـاء: إن كل الناس قابـلون لأن يسموا بالـقرائح سواء؛ وإن مـا يفعله البـعض بواسطة عقولهم، يقـدر أن يفعله غـيرهم، إذا استخدموا نفس الوسائط التى استخدمها أولئك.

ما لنا لا نرى منا أشخاصًا كبارًا، ما بين مخترعين، ومكتشفين، وأعلام فى جميع العلوم؟! هل هذا لأنه ليس فـينا صلاح لذلك، والنفوس التى بين جنوبنا ليست خليقـة بمحاولة المعالى؟! فما هناك سبب لتـسجيل هذا الوصف الذميم عـلينا! أما فى ماضـينا، فقـد كنا فى سجن من الظلم لا نسـتطيع أن نخليـه. كان الظـلم يلحقنا، مـن فوقنا، ومن تحت أرجلـنا، ويأتينا من بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شـمائلنا، وأوزاره ملقـاة على رؤوسنا وكواهلنا وظهورنا، وأغـلاله فى أعناقنا وأيدينا وأرجلنا، لا نستطيع أن نفلت منه، ولا نقدر على نهوض، ولا نقوى على حـركة. ونحن الآن كالذى أخذ يهب من سبات غب سهر دائم، أو يفيق من بنج ثقيل. فمتى كنا بحيث تدب فينا نفـوس عالية، وعلو النـفس لا يكون إلا مع الحرية والاستـقلال؟! نحن كمتنبئ أُتى به إلى بعض الخلفـاء، فسأله عن معجزاته، فقـال: لو أمهلتمونى آتى بمعجزة، أرسلت بالغداة، وحبستمونى بالعشى!

إنه ليهمنا كثـيرًا - ونحن نرجو سريان الهمة العاليـة فينا، ونبوغ رجال كـبار من بينـنا - أن يتنسم إخوانـنا الأزهريون روح الاستـقـلال، ويرحبـوا للعلوم، بل واللغات، صدرًا، حتى يجدوا منها عضدًا على نشر الدين، وتجد منهم الأمة أعلامًا مصلحين!

بلاد مـصر بلاد دين، والأزهر يـكاد يكون مضـغـة فى جسـدها، إذا صلحت صلح الجسم كله. ما للأزهريين لا تجـاوز أصواتهم جدران الأزهر؟!

ما لهم لا يحفلون بالأمور العامة، التـى فيها صلاح الناس، دينهم ودنياهم؟! ألم يأن للأزهريين أن يجدوا فى إقام الدين والنصح لهـذه الأمة!؟ أليسوا ورثة الأنبياء؟ هل كان الأنبياء يكلون الوثنيين إلى أنفسهم ويذرونهم فى باطلهم؟!

يهمنا أيضًـا، لنفس هذا الغرض، أن يكف ذواتنا عن قـتل أوقاتهم فى العكوف على ابنة الكروم، والسيارات تغدو بهم وتروح، يحسبون منها شجرة الخلد وملكًا لا يبلى. ماذا عليـهم لو تعلقت نفوسهم بالأمور الـكبيرة، التى فيهـا الصلاح لأنفسهـم وبلادهم، وصرفوا من أوقاتهم فى الرحل العلـمية، وإحياء دارس العلوم، لا فى رحلة الصيف إلى الملاهى. إذا شكا جماعة منا، قال بعضهم:

أرى نفسى تَتُوق إلى أمور ويقصر دون مبلغهن مالى

وقال آخرون: ويقصر دون مبلغهن وقتى. فما عذر ذواتنا، على ما هم فيه من سعة المال والوقت، إذا لم يلبوا داعى الهمة؟!

كذلك يجب علينا أن نعمل لرقى العلم والتعليم عندنا، فإن العلم كالماء العذب، إذا ارتوت منه النفوس اهتزت وربت، وأبتت، وما نباتها إلا النفوس الكبـيرة، والفـضائل. قـد استـهل العلم ونشط فى المهـد، بما لقى من عناية الحكومة والأمـة. غيـر أن تعويل الأهالى على أنفـسهم لم يبلغ بعـد نصابه، وكأنهم لا يزالون يرتقبون أن تعـمل لهم الحكومة كل شىء، وإلا فلا أقل من أن تضع لهم أساس العمل، أو تلجئهم إليه.

أين الجامعة وأين مشروعها؟ إنه إذا أنشئت الجامعة فى هذه الديار، هبط عليها روح قوى من السماء، فسرى فى الأمة، وأثمر من الحياة ما شاء الله.

وإنكم، أيها الطلاب، عما قليل تصبحون من رجال الأمة، ويناط بكم بعض شؤونها. فخذوا أعمالكم بقوة، وجدّوا، واطلبوا الغايات البعيدة.

إن كنتم تحسبون أن الواحد منكم إنما يصلح معلمًا فى مدرسة النحاسين أو المحمدية، فأنتم مخطئون؛ لأنكم تصلحون للتربية فى المدارس التحهيزية والعالية أيضًا، متى اجتهدتم. وهؤلاء إخوانكم السابقون يربون فيهما.

أنتم تصلحون، متى عملتم، لأن تكونوا محامين محسنين، وهؤلاء بعض إخوانكم يعملون فى المحاماة.

أنتم تصلحون، متى عملتم، لأن تكونوا قضاة ومستشارين فى المحاكم، وهؤلاء بعض إخوانكم، منهم رئيس المحكمة، ومنهم المستشار، ومنهم القاضى، وقد كانوا طلابًا فى هذه المدرسة، يجلسون لاستماع الدرس كما تجلسون الآن.

بل أنتم أكفاء لأن تتربعوا فى دست الوزارة، متى تحركت بين ضلوعكم نفوس عالية أبية، فأملتم، وعملتم، واجتهدتم. وهذا سعادة ناظر المعارف العمومية، نشأ مجاورًا كما نشأتم. فارفعوا أعناقكم، ومدوا أبصاركم، واسعوا إلى المطالب الرفيعة التى تعلى شأنكم، وجدّوا تحمدوا غب السرى.

***

obeikandl.com

عزة النفس

هى إكرام المرء نفسه، ووضعها فى مرتبتها. رفعة المنزلة من السعادة التى يجدها الشخص فى هذا العالم. على أنها قوة كسائر القوى، تساعد المرء على نيل أمانيه، والتصرف فى أموره، وأن لها فعلاً بالألباب، وسلطانًا على النفوس، لا تضاهيها فيها قوة أخرى، كالمال والجاه. وسبب رفعة المنزلة إنما هى الأعمال المختلفة التى يقوم بها المرء، والصبغ الكثيرة التى يتبدى فيها لأعين الرائين، تابعًا لما توحيه إليه نفس عزيزة، ترى الموت أن تُلِم بالدنايا.

ومن الخطل، أن تحسب العامل فى أقدار الناس إنما هى الأموال التى جمعوها، أو العلوم التى حصلوها، أو المناصب التى نالوها، وإن كانت هذه الأمور من وسائل الاحترام، فى الجملة.

إنك لتجد بين العالمين تباينًا: هذا يجله القلب، وترمقه العين، ويلقى إليه السمع؛ وذاك لا يؤبه له، ولا يقام له وزن، ولا ينال من الناس إلا الازدراء به، والحط منه. ومثل هذا التباين تلقى بين أولى الثروة والمناصب العالية، بل قد يكون من المال يكسبه الفتى ازدراء به، إذا نكب عن المروءة جانبًا، وأجاب داعى البخل. كما قد يكون من العلم موجب لعدم توقير من حصله ولومه، إذا لم يكن نصيبه منه غير قيامه حجة عليه، كالبصير يسير على طريق بغير هدى، حتى يطوح به عدم احتراسه فى بئر، فإنه ملوم. أما الأعمى فإنه إذا تردى فى تلك البئر، كان من الناس فى موضع الشفقة لعجزه. كذلك يكون من المناصب الرفيعة مقت لذويها، إذا كانوا لا يرعونها ق رعايتها. وكثير من ذوى المناصب العالية، الذين قعد بهم أمر عن أداء

حقوقها للناس، لو كانوا فى مناصب دونها، فذلك أدعى لتوقيرهم، وأجلب لسعادتهم. إنه لا يولى الفتى تبجيلاً لماله، ولا ذا السلطان إعظامًا لمنصبه، إلا واحد من اثنين: إما رجل خيم الجهل على قلبه، وإما رجل ساقته الحاجة.

من الواجب أن تُعنى بكل صغير تفعله، فأنت مؤاخذ بكل صغير، وله أثر فى قدرك بين الناس، كما كانت الحصاة لها عمل فى قيام القصر المشيد.

الكلمة تقولها نابية عن الأدب، أو مائلة عن الوقار، لها عمل فى قدرك، فلا تتساهل فى كلمة.

المشية تهزول فيها، تزيد عن الحاجة، لها أثر فى قدرك، فاقصد فى مشيك.

الصوت تجهر به، تجاوز ما اعتاد الناس، له أثر فى مكانتك، فاغضض من صوتك.

اللقمة تلوكها فى فمك على الطريق، بمرأى من السابلة، لها أثر فى مكانتك.

القهوة الحقيرة يأوى إليها السفلة، بجلوسك فيها أثر فى منزلتك.

الرجل الساقط المنزلة، لجلوسك إليه وحديثك معه فوق الحاجة، أثر فى منزلتك.

قصدك إلى الدار تجلس فيها للخدم والحاشية، لا مع السيد، مؤثر فى رتبتك.

سعيك إلى الكاتب فى أمر، تقف منه بمزجر الكلب خاسئًا، تكلم، فلا تكاد تسمع صوتك، مؤثر فى رتبتك.

obeikandl.com

كل هذه أمـور لها تأثيـر فى قدر الشـخص بين الناس، وعليهـا وعلى أشباهها تعـتمد رتبته. فانظر فى جميع أقـوالك وأفعالك وأحوالك، ولا تول شيئًا منها غضًا، فإن الناس يعدونها عليك حيث لا تحتسب.

إذا لم يكن فيك نفس ترفعك عن الأمـور القيرة، وتدفع بك إلى طلب منزلتك التى لك، فلست على شىء من عـزة النفس، ولا تجد إذن من الناس من يكرمك، بل تكون أهون عليهم، منك على نفسك.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانًا بها كانت على اناس أهونا

إن الوضع - أيها الطلاب - الذى وضعكم الله فيـه من خير الأوضاع، والطريق التى نتم آخذون عليها من خيـر الطرق؛ فأنتم طلاب مدرسة تعدّكم لأن تكونوا فى الغـد معلمين لأمـتكم. أنتم الوسيلة الحـقة لأن تُعلـم الأمة، وحيـة الأمة منوطة بالعـلم. أنتم طائفة من طوائف العلم، وأفـضل الطوائف هم طوائف العلم؛ نعم يفضل بعضهم بعضًا.

هذا، أما إذا ألقيتم على كواهلكم تربية النابتة تربية صحيحة، وإحياءهم بروح قوى من الدين ينفخونه فى صدورهم، وأخذتم على أنفسكم أن تكونوا لهم قدى صالحة، فقد نهجـتم أعدل منهج، وكنتم خير أمة أخرجت للناس. أنتم حينئذ العلمـاء الذين يخشون الله من عباده، وأنتم حينئـذ ورثة الأنبياء؛ فـوجهـوا منك همة عـاليـة فى التمـاس هذه الدرجـة الرفيـعة، وعـسى أن تصيبوها، وأؤصوا بها من بعدكم، فرب مبلغ أوعى من سامع.

هذه، أيهـا الطلاب، هى منازلكم التى هيـأكم الله لها، فـلا تطعمـوا أنفسكم الهوان، وتجرعوها الذل، ولا يزحزحنكم عن أقداركم ما تحسبوننا فيه من الفـقر المزرى، إلى مـا ترون فيـه الملأ من قـصورهم المشـيدة، وخـيلهم

المطهمة، وأموالهم الوافرة؛ فإن لنا فى القناعة مجداً بناؤه أطول مما يجده أولئكم فى بنائهم، وعزاً أقوى مما يجدونه فى ظهور خيلهم، وغنى فوق ما يجدونه فى أموالهم. وهيهات أن يصاب فنى من مال!

وكما أن وضع المرء لنفسه دون رتبتها حط من قدره، كذلك وضعه لها فوق رتبتها يثير عليه أحقاداً، تغلى فى الصدور غلى الماء فى المراجل، ويجلب له المقت، ويجعله عرضة للرد إلى مرتبته الحقة؛ كالذى اكترى مقعداً فى ملهى، ليس له أن يجلس فى مقعد خير منه، وإلا استهدف شخصه للهوان، والسوق طوعا أو كرها إلى موضعه. والذى اكترى محلا للسفر فى عربات الدرجة الثانية، ليس له أن يتكئ على أرائك لدرجة الأولى، وإلا عرّض نفسه للخسارة أو الطرد. كذلك نحن فى هذا العالم، ليس لنا أن نقر إلا حيث تنصب لنا أقدارنا مقاعد.

ومن أسباب عزة النفس، شعور الإنسان من نفسه بالفضيلة، وإقدامه؛ فإنه كلما شعر الشخص من نفسه بالفضائل، ولم يخذله إقدامه، عزت عليه نفسه، وأقام لها شعائر الاحترام. وإن النفوس البشرية لتهون على ناقصى الإقدام، والذين يطوحون فى النقائص. تهون على المرء نفسه متى استولى عليه الشعور بالنقيصة، حتى إنه ليحسب راحته فى الهرب منها. ألم تر كيف ينتحر بعض الناس إثر اقتراف النقيصة؟ فلا شىء أذهب براحة النفس وأحط لها، وأعمل فى صغارها من النقائص! أف من النقائص! ما أشقى الأحرار بها، والجواد قد يكبو - وما أقدرها على التطويح بهم فى نار حامية!

إن بعض الناس، لسقوطهم فى نقيصة، تغيرت عوائدهم، وآدابهم، وأخلاقهم، حتى صاروا خلقًا جديداً، لو مثل لهم من قبل لرأوه غير خليق

بنظرة منهم. اعوج طريقـهم، وقد كان من قبل سويًا! ودنـت غاياتهم، وقد كانت من قبل بعيدة! ماتت آمالهم، وكانت من قبل حية! وسفلت أخلاقهم، وقد كـانت عالية! وانحطت آدابـهم، وقد كانت راقـية! ورضوا بأن يسـاموا الخسف من جميع الناس، بعد أن كانوا من أباة الضيم! وبدا للناظرين خطلهم فى كل شىء، بعد أن كانوا متسمين بالكياسة، وأصالة الرأى؛ كأنهم إلى هذا اسودت وجـوههم، وتغيرت خِلـقهم الظاهرة؛ فلو رأيتهم، عـلى خُلة كانت لك بهم، لأنكـرتهم، ولو اطلعت عليـهـم لوليت منهم فـرارًا ولملـئت منهم رعبًا! هذا، أيها الطلاب، لأنهم سقطوا فى النقـيصة على مشهد من الناس، فهـانت عليـهم أنفسـهم، ونابهم انكسا أشـعف إقدامـهم، الذى كان يـأخذ بأيديهم ويتقدم بهم، حيث مستقر النفوس العزيزة!

تقطعت صلاتهم بخلق، واتـضعوا عند خلق آخر! وأقـفرت منهم تلك الغرف التى كانـوا يشرفون منها على العـامة، حتى كأنما كانت تلك الـفضيلة التى خدشوا وجهها، حجرًا خرَّ من بناء فتداعى من أجله ذلك البناء!

ماذا تتوقع فى غـالب الأحيان من مدير عزل من منصبـه لرشوة أساءت سمعته، غـير تنكبه عن بعض الطبقات التى كان يغشاها، خـصوصًا أصدقاء الفضيلة منهم، وصيرورته إلى مخـالطة آخرين، لا يقطبون للنقائص وجوهًا، وتبذله فى أمـوره، ووقوفه عند حال، دون الـذى كان فيه من القـول والفعل وعزة النفس؟!

فلتحذر الرذائل، لأنها تذهب بعزة أنفـسنا، وتبيد سعادتنا، وتحرفنا عن الطريق السوى، طريق الدين والحكمة.

علينا بتجنب الكذب، والخيـانة، والبخل، والرياء، والغش، والطمع،

والميل مع الهوى، فـإنها تنتـهك عزة أنفسنا، وتجـهد سعـادتنا، وتجلب علينا الشقاء من كل ماكن.

ولنحرص على الأخلاق الفاضلة، فإنهـا الأساس المتين لسعادتنا، وعزة أنفسنا.

لنحـرص على الإقدام، قـدر مـا تحتـمل أنفـسنا، والعـفة والقناعـة، والأمانة، والصبر، والصدق، والحرية، فإن فيها مدداً لعزة أنفسنا، وقسطًا من السعادة أيما قسط.

***

obeikandl.com

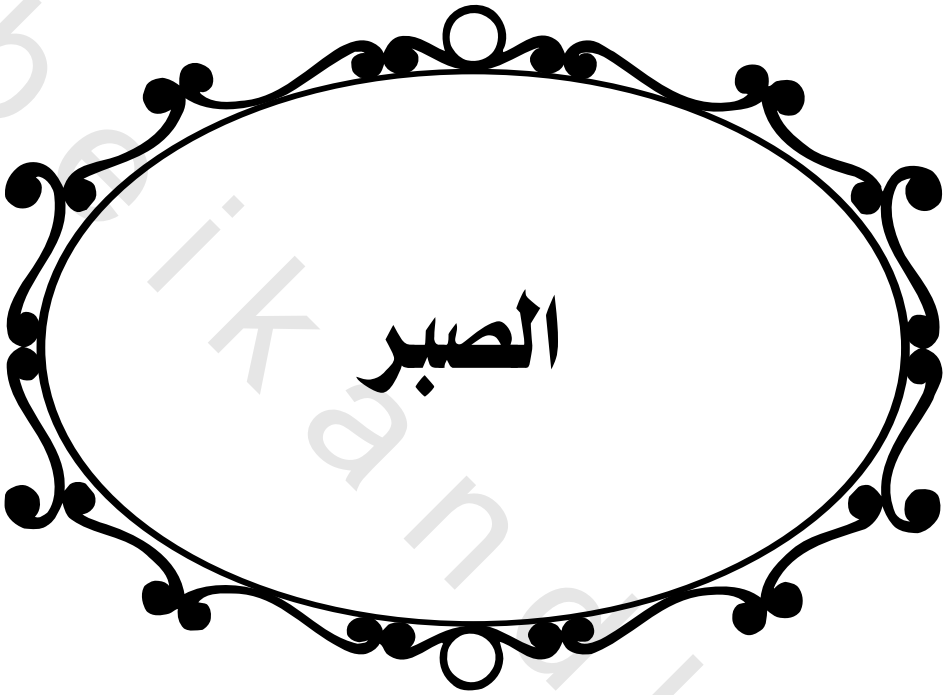

obeikandl.com

الصبر

الصبر من ألزم الأخلاق للمرء، حتى يدرك أربه فى الدنيا والآخرة.

من أجل هذا ذكر فى التنزيل العـزيز، فى نيف وسبعين موضعًـا، كما فى الأحياء.

قال الله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

وهو أنواع:

الأول: الاستسـلام عند المصائب، فإن الجزع لا يهون أمر المصـيبة، بل يعظم شأنها. ومن الحكـم: المصيبة للصابر واحـدة، وللجازع اثنان. إن كان التصبر لا يذهب بالنكبات، فإن فيه تقليمًا لأظفارها.

ومن قول أكثم بن صيفى: حيلة من لا حيلة له الصبر.

ما أشقى المرء الذى يسلم نفسه للجزع، خصوصًا إذا كان التخيل يجسم الدقـائق، لأنه يصلى فى كل كـريهـة بنارين، نار من جـزعه، وأخـرى من تخيله، ولا يكاد يفكر إلا فى نازلة.

إن الاستـسلام عند الشـدائد، والإنابة إلى الله، من الإذعان بالعـجز، والشكر له، من ايات الفوز.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة البقرة].

لا تذهبن نفسك على فائت حسرات، واذكر أن كل شيء إلى فوات، وإن تراخى الأجل، وأن موقف الجزع، ينقص الوقار، ويذهب الحشمة.

الزم الصبر، فعما قليل يصير الرزء الذى ينوء بك إلى سيرة، كالشهاب، يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع.

تذهب الشدائد وتنقضى الأحزان، ولا يبقى من الجزع إلا سخط الله وازدراء الناس، ولا من الصبر إلا رضوانه وثناؤهم.

ومن خير ما جاء فى الباب قول إبراهيم بن كُنيف.

تعز فإن الصبر بالحر أجمل ... وليس على ريب الزمان معول

فلو كان يُغنى أن يُرى المرء جازعًا ... لحادثة أو كان يُغنى التذلل

لكان التعزى عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر أولى وأجمل

فكيف وكل ليس يعدو حمامه ... وما لامرئ عما قضى الله مزحل!

ويغلب الصبر فى الشيوخ الذين طالما امتحنهم الدهر، لأنهم يكونون بحيث قد عُودوه فى جميع أحواله، واطمأنوا إلى أن من غالب الدهر غلب، ومن صارع الأيام صرعته، ووطنوا نفوسهم على قول ابن دريد:

فالدهر يكبو بالفتى، وتارة ... ينهضه من عثرة إذا كبا

لا تعجبن من هالك كيف هوى ... بل فاعجبن من سالم كيف نجا!

أما الشبان فأولئك هم الأغرار، لم يسمعهم الدهر بعد عشاته، ولا أخلصهم بنوائبه؛ جهلوا، وإن حفظوا علومًا شتى! بعيدون عن التعلم، وإن طال اختلافهم إلى المعلم، فإن المعلم الحق هو الدهر!

يريد الشباب أحيانًا أن يفلت من يد الدهر، وآونة يبغى أن يصرعه، وهو فى الحالتين تائه عن الحق. إذا أقبل الدهر على الشباب عابسًا تتهلل نواجذه، حاول أن يتخلص منه، فأوقع نفسه فى شدة، وابتلاها بمحنة شر من محنة الدهر. وإذا علم أن لا مفر من الدهر، انتحر بعض التلاميذ عند خيبتهم فى الامتحان.

يبتلى الله الإنسان ليربيه ويصلح من شأنه. رب مريض مسجى، وأهله وأصحابه مطيفون به يبكون، ولله تعالى فيه منة، ما يرضى المريض منها بحمر النعم. إن المصائب إيقاظ الله للعبد من غفلته؛ فمن ألقى السمع، وتسمت الصوت، نجا من المفاوز التى يتيه فيها.

إن فى كل نكبة شمسًا تضىء النهج، ولكن الأجهر يتأذى لضوء الشمس. لا يأخذنك عجب، فأنت نفسك، إذا مرض ابنك، أذقته صنوفًا شتى من الألم تبغى شفاءه من مرضه، بل تحاول أن تشقى نفسه من الرذائل بإذاقته ألوانًا من الألم.

إن كنا لا نفهم أحيانًا وجه ارتباط المصلحة بالمصيبة، فلعجزنا وقصورنا، كما أن ابنك فى بعض الأحيان، ترتب الفائدة على ما يناله منك من المكاره. سل عن كثيرين من المرضى، تعلم أن المرض كان لنفوسهم علاجًا شافيًا. تعالى الله علوًا كبيرًا، أن يكون كالطفل، يربط العصفور من رجله لا تأخذه به رأفة! احمد الله تعالى على الشدة قبل الرخاء، والضراء قبل السراء.

قال يواقيم هنرى، فى مكـاتبة روبنسون، التى وضعهـا باللغة الألمانية، وجعلها كتابًا لمطالعة النابتة، ما تعريبه:

«قال الأب: إن القدر يجرى بنا كما كان منى اليوم مع حشرة.

فقالت الأم: وكيف كان ذلك؟

قال الأب: اليـوم كنت أكسـر خشبًـا، وبينما أنا أريد ضـربه بالقدوم، أبصرت حشرة فى مسكنها سيصـيبها القدوم. فقلت فى نفسى: ما جناية هذا الحيوان فأقتله؟ ثم نفخت الحشرة نفـخة أطارتها من سكنها، وألقتها على بعد ثاث خطوات منه، كأن عاصفة شديدة احـتلمتها. ثم قلت: ترى ماذا فكرت هذه الحشرة الحـمقاء فى نازلتها - إن كانت الحـشرات مما يفكر؟ - إنها تكون قد قـالت: ما أقـسى هذا الظالم الذى يمشى على رجلـين؟ ما أقسـاه إذ أثار عاصفة استأصلتنى من مسكنى مرغمة، وطارت بى فى الجو حتى سقطت هنا غريبة، نازحة الدار والوطن؟ ويا ترى ماذا يجـد له فيما صنع؟ إنه فعل بى ما فعل، إلا ليرانى اسـبحة فى الجو أقلب فيه! ومن البـعيد أن تكون رأت، ولو فى منامها، إننى إنما فعلـت بها ما فعلت، عطفًا عليها، وإبقـاءً على حياتها. فإذا نزلت بنا نازلة، فـعلينا ذكر هذه الحشـرة، ولا علينا حكمًا مؤسـسًا على الكفـران بالنعم. ولئن فاتنا إدراك سـر القدر، لقـد فات تلك الحـشرة إدراك مقاصدنا».

الثانى: توطين النفس على احتمال المكاره، التى فى الأفعال المحمودة.

قال الله تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب».

وفى الإحياء، قال ﷺ: «فى الصبر على ما تكره خير كثير».

وقال ﷺ: «إنكم لا تدركون ما تحبون، إلا بصبركم على ما تكرهون».

من البي أن المرء إنما ينتفع به ويقدر بأعماله، والأعمال، خصوصًا ما كان منها جليلاً شاقًا، لا تتم إلا بالصبر. إن الذين لا يعتصمون بالصبر والثبات، ينفقون كثيرًا من أوقاتهم وقواتهم هدرًا، ولا يتأهلون لمباشرة الأعمال الكبيرة.

عمل الأذكياء ليس بشيء فى غالب الأحيان، جانب عمل المتوسطين الذين يعتصمون بالصبر. لا يقعدن لك احتقارك لموهبتك من الذكاء عن طلب الغايات البعيدة، إذا كنت امرأ مغرى بهمة عالية؛ فإن لك فى الصبر ما يساعدك على بلوغ أمانيك، أكثر مما يساعد الذكاء المخلوط بالضجر ذويه. انظر إلى إخوانك الذين يجمعهم بك فصل واحد، تر فيهم من قسطُه من الذكاء واف، ومن حظه دون ذلك! وقد يعطيكم مدرس الحساب مثلاً مسألة يطلب منكم حلها، فيتفق أن الذكى ينظر فيها برهة، ثم يدركه الضجر فيدعها، وأن الذى دونه يجد لها بعد زمن حلاً؛ ذلك بما صبر. كذلك شأنكم بعد تمام الدراسة، خارج المدرسة؛ الفوز للصابرين، والله معهم. سلوا عمن هو أكثر تأليفًا، من إخوانكم الذين سبقوكم، ينبؤكم بأنهم أصبرهم لا أذكاهم. نعم إن الغلبة فى المدرسة غالبًا للأذكياء، ولكن خارجها بالعكس، الغلبة غالبًا للصابرين. ذلك بأن أمور المدرسة مركبة من دقائق تنقضى الواحدة منها فى لحظة، أما هذا الجو الذى سبقناكم إليه بالأمس، وستلحقوننا به، ففيه آمال كبيرة وشاقة، لكنها جليلة، لا يستطيع الضجر مباشرتها، ولا يذوق ثمرتها، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. فليطب نفسًا من يشعر من نفسه

بقصور فى الذكاء، فإنه يستطيع أن يتـبدل به الصبر. ألم تر أن الله تعالى قرن قوة الصابر بعشر قوى؟! قال تعالى:

«إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين».

ليس معنى هذا أن الصبر بمنزلة التميـمة، متى علقها الشخص ظفّره الله تعالى، بل مـعناه أن فى الصبـر مضاعـفة للقـوة، فإنه يحـمل على الإلحاح والمداوة، ومن كان مستمرًا ملحًا، فجدير بالفوز والغلبة.

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبوبا أن يلجا

إن الهمـة العالية لا يحـصل عليها إلا الصـابرون. أما الضجـر فإنه لا يحصل منهـا غير الأمـانى، فإن الهمـة العالية تحت الجلـد فى طلب الغايات البعيدة، وذلك يقتضى النصب والتصبر.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

إن الهمة العالية، أينما سارت، سار فى ركابها ثلاثة خدام، من الإرادة والصبر والثبات؛ والصبر والثبات متلازمان فى الجملة. وفى كتاب سر النجاح لصموئيل الإنجليزى كـثيرون من الذين ثبتوا وصبـروا. كتاب طيب إلى الغاية عرّبه أصحاب المقـتطف. كتاب يحرك من القارئ نفسًا خـامدة، ويحيى أملاً ميتًا، مـا قرأت فيه إلا لقيت منه فى نفسى أثرًا حمـدته، فعليك بطلبه حيث تجده، وقراءته مرة، لا بل مرات.

أرسل الله تعالى الرسل بالهدى ودين الحق، ليُطهروا الناس مما هم فيه، من سفك الدماء، وإثارة الشـر، والعادات السيئة، فجاءوا أقـوامهم بالهدى، فلقوا منهم الاسـتهزاء والتكذيب والضـرب، فصبروا على مـا كُذبوا وأوذوا،

حتى جاء نصر الله. ومنهم سيدنا محمد رسول الله ﷺ، جاء بالحق من ربه، فأصابته إهانات شتى، ومع هذا أمر بالصبر إذ يقول الله تعالى: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل» وكان من نتيجة دعوته وصبره، أن غمر الناس بخير جزيل، وهداهم للإيمان، وفى الإيمان الحق كل خير وسعادة.

اقتضى إحسان الله أيضًا أن يوجد فى الناس أصنافًا من العلماء المصلحين، والمخترعين الماهرين، والمكتشفين الذين ضربوا فى الأرض، والصناع الحاذقين، وكل هؤلاء لم ينجحوا فى أعمالهم ضرورة، ويصلوا إلى ما وصلوا إليه، إلا بالصبر؛ ففى الصبر إحسان من الله إلى الناس، ومن الناس إلى الناس.

ولقد رأيت من تمام الفائدة. أن أعرب لك ما كتبه بوزن الألمانى فى الصبر، قال: الصبر هو الاستعداد لاحتمال الآلام، بدون أن نذهب بنفس الشخص. ويمكننا أن نلحظ منه نوعين: نوعًا يرجع إلى الاحتمال، والثانى إلى الفاعلية. الأول: احتمال الآلام من غير بذمر ولا معارضة، والثانى: قوة فى الخاطر، بحيث يجد الشخص من نفسه قدرة على النهوض، والإقدام على العمل ثانيًا، غب انكسار أو خسارة أو نحوهما. الصبر شجاعة المرأة، وه بنوعيه، خصوصًا الأول، أكثر فى النساء منه فى الرجال، وإنك لترى أن قوة الاحتمال للأوجاع تكمل فيهن، كما لا يقضى منه العجب. وهذا الفرق منشؤه الاختلاف بين الطبيعتين، طبيعة المرأة، وطبيعة الرجل؟ فالمرأة بطبيعتها أمهر من الرجل فى احتمال الآلام، أما طبيعة الرجل، فمبناها على الهجوم والدفاع، ويصعب عليه الوجود فى ألم لا يستطيع فيه دفاعًا، ولا يمكنه أن يفلت منه. وكذلك النوع الثانى يكثر فى النساء أيضًا؛ فإن المرونة فى قوة

المعارضة عند المرأة، من أنفس أوصافها وأجملها. الرجال متى كبروا ينهضون من عثراتهم بصعوبة، أما المرأة فإنها فى الجملة تهتدى ثانيًا بسرعة إلى طريق المعيشة والواجب، فإنها لا تلبث بعد كبوتها حتى يدركها الخوف والرجاء، فتهم وتعمل؛ ذلك بأن طبيعتها مرنة، بخلاف الرجل، فإن طبيعته أجف، وأقرب من الكسر، والمرأة تتقبل باحتمال عظيم ما يثقلها من الأتعاب والمكاره. إن الرجل ضجر، وهى مستريحة هادئة البال، ولهذا طبعت على كونها حافظة للأطفال، متعهدة للمرضى، مسلية للشيوخ.

دل الإحصاء على أن قوة احتمال الآلام والأقدار، أتم فى المرأة منها فى الرجل، بواسطة حوادث الانتحار. يقابل انتحار كل امرأة بأربعة من الرجال. فإذا دل الانتحار على أنه لم يبق فى الإنسان قوة يطيق بها الحياة، صح بمقتضى هذا أن يقال: إن قوة الاحتمال فى المرأة، تساوى قوة الاحتمال فى الرجل أربع مرات.

إن الصبر على الآلام يدل دائمًا على خلق شريف. أما الشجاعة والثبات فقد يأتيان بالتبعية لنية سيئة، أو محبة الشخص لنفسه، بخلاف الاستسلام للشدائد، فإنه علامة على أن قوة المزاحمة الشديدة الطبيعية فى الحياة، التى بواسطتها يحصل طلب الإفلات من الشدائد، هدأت وتلاشى عملها، بواسطة إرادة عالية فى الشخص. من ثم لم يكن هناك تنافر شديد، بين النفس والنازلة.

الثالث: احتمال المكاره، التى فى صرف النفس عن هواها، وهو أيضًا عفة، قال الله تعالى: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى». النابت تحت ولاية أبيه أو جده مثلاً، لئلا يتصرف ضد

مصلحتـه، ومتى كبر خرج من هذه الولاية، ولكن يجب عليـه أن يضع فسه تحت ولاية الشريعة، وإلا كان أقدر على إيذائها منه فى صغره.

ومن الخطأ الذى لا يغـتفر، أن يجـعل زمامـه بيد نفسـه وهواها؛ فكم ألقت بالمرء تلبية الهوى فى الهوان:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

من الحكمة ألا ينال المرء إلا من لذة مـباحة، فـإن إباحتها عـلامة على خلوصها من الأذى. أمـا النفس فتتهافت على اللذة المـهلكة، تهافت الفراش على النار.

إن أنصح صديق لك الشـرائع السماوية، وأغش عـدو لك نفسك التى بين جنبيك، فاحـذرها. إنك تسمع من الشريعة صـوت الحكمة، وتسمع من نفسك ضوضاء من البهائم، وجلبة من الشياطين.

إن القوة البهـيمية اسـتولت علينا، فأفسـدت فينا أكثر مما أفـسدته القوة الغضبية، وأكثر نقائصنا من جهة الشره فى الانهماك فى الملاذ.

فى ظنى أن معظم الجنايات التى تقع فى بلادنا، مـن نحو القتل، ترجع إلى إفراط القـوة البهيـمية، لا إلى إفـراط القوة الغـضبيـة. لتزاحم على لذة حيـوانية، يقتل الرجل أخـاه، أو يقتله ودونه حجـاب مستور، حـريصًا على عرض يصيبه.

إن أشقيـاءنا مسوقون إلى الشقاوة بالـشره، أكثر مما هم مسوقـون إليها بشىء آخر.

حالة أكثر الطبقات عندنا تستـدعى الأسف؛ فالطبقة العالية، وهم أبناء

ذواتنا السابقين، وذواتنا اليوم، دفعها التبذير إلى طاعة الشهوة البهيمية على أقبح وجه. قلدوا الأوروبيين أسوأ تقليد. قلدوهم فى الصورة الظاهرة، من اللغة والملابس وشرب الخمور، وأعرضوا عن الفضائل. الأمير أو المعتدل من الأوروبيين، يشرب قليلاً من الخمر فى الغالب، من عادة أو توهم جلب منفعة، وأمراؤنا يشربونها ليسكروا. ذاك يفعل الشىء طلبًا لما يوافقه، وهذا يفعله تكلفًا وتقليدًا. فسد أمراؤنا داخل بيوتهم وخارجها. أفسدتهم الخمر فأفسدوا حاشيتهم، وسرت عدواهم إلى بعض المستقيمين. أصبح ذلك الطزبوش الأحمر الطويل، حشوه رأس امتلأ سرفًا وتبذيرًا. ليس هذا واجب أمة على أمرائها، إن واجبنا على أمرائنا أن يتمسكوا بالفضيلة، ويتجنبوا الرذيلة، حتى يكونوا فينا قدى صالحة. واجبنا عليهم أن يعينونا على إغاثة فقرائا وتربيتهم، وأن يتعرفوا إلينا فى شدائدنا، وأن يكون كل قصر من قصوره مشرقًا لشمس الفضيلة والعرفان، بحيث تصبح فى عداد مدارس الأمة، ومن خيرها. ولهم بذلك منا ارتباط قلوبنا بهم، وإخلاصنا لهم فى السر والعلانية، واحترام السوقة للأمراء.

أما الطبقة الدنيا من العمال والصناع، فقد غلبهم الحشيش والخمر على عقولهم حتى أصبح ورم العينين، وهو فى الغالب علامة عدم الاستقامة، سمة لأكثرهم.

سألنى قريب لى عند عودتى من أوروبا، عن شىء أكون قد استغربته عند وصولى إلى مصر، فلم أذكر له ما يصلح. فقال: ولكنى أول ما عدت، أخذنى العجب من مرأى العيون، فإننى رأيت أغلب الأجفان وارمًا. ألم تفكر مرة فى هؤلاء العملة الفقراء، الذين يترددون على الحانات، وفى

أسرهم؟! يمضى الواحد منهم يومه فى أى محل إقامته فيه الحاجة، يترقب الليل، وخياله يبحث عما يضحك السُمار، حتى إذا شاب النهار خرج إلى الحانة، وله زوجة مسكينة، وذرية ضعفاء، لا يمر بهم. وإن ألم بهم، ترك لهم قليلاً من النقود لا تكفى لحاجتهم من الخبز وحده، واشترى بما بقى معه خمرًا، وما هى بالخمر، إنما هى سموم تقتل بالتدريج، وربما قتلت من فورها. تشتد حاجة المرأة والأولاد، فيأخذ كل منهم على طريق معوج، والطرق المعوجة شتى. أليس من هؤلاء بعض من ترى من الصبيان، يطوفون فى الطرق بلا مهن أو فى مهن حقيرة؟! يتسلط النزاع فى الأسرة، ويسير كثير من النساء والرجال فى طرق غير شرعية، ويكثر الطلاق والزواج، ويأتى الأسر الفساد من كل مكان.

إلام تصير الأمة، والأمة جسم مؤلف من هؤلاء، ومن الذوات المبذرين، والأوساط، وبعض الأوساط ساقط فى الرذيلة؟!

إن الضرر الذى يلحق أمة مثل أمتنا، من تبذير الذوات مضاعف، لأنهم إذ يسرقون فى أموالهم، يشترون بها أشياء من غي بلادهم. أما الأمم الحية، التى فيها حاجاتها من المصنوعات وغيرها، فتبذير الفرد منها ليس معناه إلا خروج المال من يده فقط.

من الواجب أن يكون منك رقيب عليك فى جميع أدوار حياتك، فإن السقوط فى الرذيلة ممكن فى كل دور. إن أشخاصًا فرطوا فى جانب الاستقامة، ونالوا من الرذائل بعد أن جاوزوا غالب العمر. يسقط الرجل فى هذه السن فى لجة الرذيلة، ولا يجد وسيلة إلى النجاة حتى تكبه فى النار.

جاء فى سر النجاح ما يأتى، بتصرف:

«إن الشاب الشارع فى خوض بحر هذه الحياة، محوط بكثير من التجارب، ليس له أن يقف عندها، بل ينبغى أن يمر بها كريمًا. وإذا تصدت له التجربة الأولى فأعرض عنها، تخلص من طائلتها حياته بأسرها، ولا تلبث مقاومته للتجارب حتى تصير عادة له، والمرء بما يعتاده. أما من تصدت له التجربة الأولى ونال منها، فإنه يضعف عن مقاومتها، ومتى تغلبت عليه التجارب حطته إلى أدنى دركات الهوان، ونزعت منه قوة الدفاع تدريجًا، حتى تجعله غير قادر على تجنبها. انتهى».

وإذا كانت التجربة التى سقط فيها هى الخمر، لم تكن رذيلة واحدة. فإن شُربها جماع الرذائل. والله لحمل الحر للسيف، وسعيه به إلى الوغى لا يدرى ما يُفعل به، أقل خطرًا عليه من قصده إلى حانة! فإن فى سعيه إلى ساحة القتال تعريض جسمه إلى الأذى، وفى قصده إلى الحانة تعريض شرفه إلى الأذى، وشتان ما بينهما. كم كأس ساقت الشارب إلى نخازٍ، حتى ود عند صحوه لو أتت عليه أحقاب وهو مقبور. هذا إلى ما يصيب الجسم والمال من الفساد. إذا قلنا إن نحو نصف الشر الذى يقع على الأرض لحسو الخمر، فما أخالنا أبعدنا كثيرًا. دع خيال الشعراء فيها وما يقولون، إن ابتغيت الرشد، وذرهم وغواتهم، والشعراء يتبعهم الغاوون.

إياك والخمر، إياك والخمر، فإن سرورها ساعة، قد يوقعك فى الخسران والأسف دهرًا طويلاً. كن كما شئت، واحذر الخمر، فلن تستطيع أن تكون شقيًا كما تشقيك الخمر!! وهل يقدر السكير أن يذر الخمر؟ نعم إذا أجهد نفسه، فإن شُربها عادة، والحر قادر على ترك العادة. فكر فيما أنت معرض

له من الخطر! مثل لنفسك ما يصيبك من الأذى، فى جسمك وعقلك، وما أنت فيه من السرف القبيح، واعلم بأنك إنسان، وما ينبغى أن تكون عبد الشهوة! إنما أنت امرؤ يعرف أن الخير فى إنفاق المال فى الخير. فكّر برهة فى دينك الذى هو خير صديق ناصح لك، وهواك الذى هو ألد أعدائك! إن تذعن وترد الخير تترك الخمر. اذكر قول بولزن الألمانى: من أراد أن يصير امرأ آخر أمكنه ذلك، وما عليه إلا أن يعتصم بالأسباب القوية والوسائل النافعة، لا بالآمال الكاذبة والأمانى. وقول البوصيرى:

والنفس كالطفل، إن تهمله شب على حب الرضاع، وإن تفطمه ينفطم

بل اذكروا قول الله تعالى:

﴿**وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾**﴾ [سورة العصر].

***

obeikandl.com

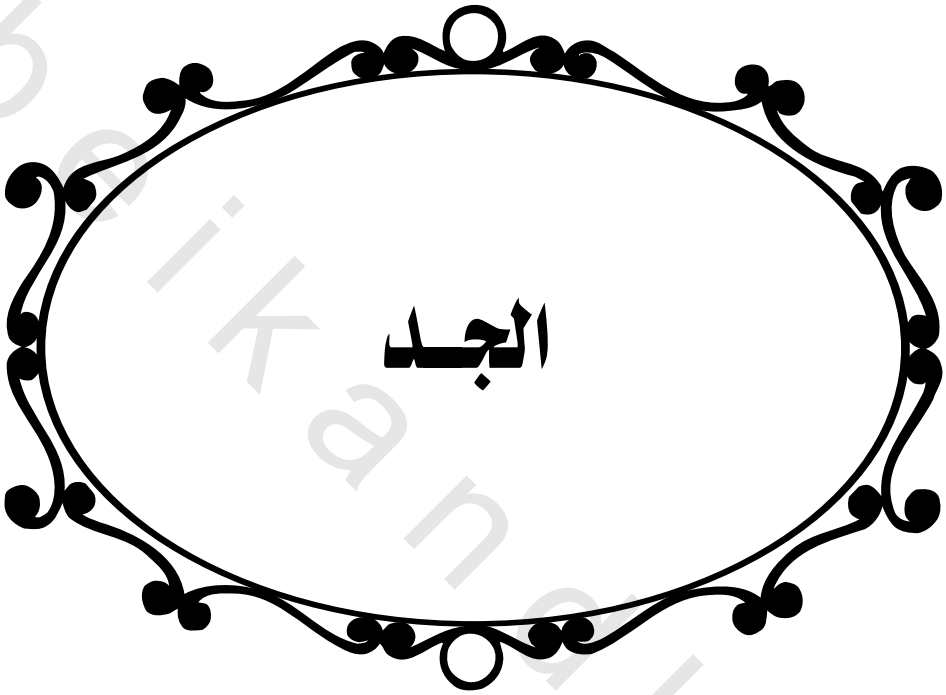

obeikanal.com

الجـد

فقل لمُرَجى معالى الأمور بغير اجتهاد، رجوت المحالا

خلق الله تعالى الأرض، وأسكن فيـها الأمم، كل أمة فى صقع، وناط ثروة أهلها وخفض عيشهم بجدهم، لا بخصب ديارهم ولا بعدهم.

فإذا أتيت بلدًا من سويسرة، وسـويسرة بلاد جبلية قليلة السكان، راقك منه بناء مشـيد، ومصـانع منتشرة فى جـميع أرجائه، ومـرافق شتى، وطرق نظيفة واسعة مستقيمـة، يتعاقب فيها ضوءان، ضوء من الشمس، وضوء من المصابيح، بحيث يسهـل جوبها ليلاً، كما يسهل تطوافـها نهارًا. وإذا أزمعت سفـرًا من ذلك البلد، لم تجد فى السفـر كلفة عليك، فـما هو إلا أن تريد، فتركب القطار، فتسافر، فتصل إلى مقصدك. وإذا انتهى بك الطريق إلى جبل من جبالها الشامخة، وجدت أثر الزارع، ويد الصانع، فى سفح ذلك الجبل، حتى تبلغ ذروته.

أما إذا أتيت بلدًا من مراكش، وما مـراكش بأقل سكانًا ولا أدون خصبًا من سويسرة، رأيت مساكن غير طيبة، ترصفت على غير نظام، وطرقًا ضيقة معـوجة، تمسك بقايـا المطر حينًا، كمـا كان يرى فى طرق القـاهرة من قبل، بحـيث إذا عن لك جـوازها نهـارًا، تجشـمت المشـاق، بل جـوازها فى ليلة ماطرة، احتجب قمرها وتوارت نجومها. وإذا عرضت لك نقلة إلى مكان آخر ناء، اكـتريت بغـلاً أو حمـارًا، وسرت أيامًـا، ينال منك النَّصب، ويروعك خطر الطريق. هذا بأن الإنسـان الذى قطن فى سويسـرة، عمل وجـد، على حين أن الذى قطن بمراكش، أهمل وتراخى.

قـد جرت سنة الله، أن تُسـبق المطالب بالمتـاعب، وتُلتقط الراحـة من النصب، كما قيل: «إن أردت ألا تتعب، فاتعب لئلا تتعب».

وهب الله للإنسان، فى عقلـه وجسمه، قدرة يطرق بهـا أبواب الخير، ويستـفتح بها السمـاء فى التماس رزقه، وقـد قال عمر رضـوان الله عليه «لا يقـعدن أحـدكم عن طلب الرزق، فقـد علمتم أن السـماء لا تمطر ذهـبًا ولا فضة».

سهل الله تعالى للمرء من الخير، بمـقدار ما أفاض عليه من تلك القوة، فلا يحل له أن يذر إعمـالها، ويسأل الرزق بلسان العاجز الكـسلان، كما لا يحل له أن يُعطل منها.

ولم أر فى عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

إن العامل الذى رزقـه الله قوة يقتـدر بها على السـعى لتحصـيل أربعة دراهم، لا يحل له أن يبـذل منهـا بمقـدار درهمين. والطالب الذى يسـتطيع تحصيل عشر مسائل، يـظلم نفسه إذا رضى منها بخمس. وعلى كل امرئ أن يجمع قواه فى كسب ما هو ميـسر له؛ ومن لم يفعل، كان مثله كرجل يملك بيتين، يغتل واحدًا منهما ويدع الآخر لا ينتفع به. هذا سفه.

وهب الله تعـالى للإنسان هذه القـدرة، وجعل له أن يصـيرها إلـى ما يشاء، فإن شـاء جعلها ذهبًا وفضة، وثـروة طائلة، وبات فى عداد الأغنياء. وإن شاء جـعلها عـامًا، وأضحى فى عـداد العلماء، وربما أضـحى فى عداد الولاة والأمراء. لئن كان للكيمياء إكسيـر، إن هذه القدرة إكسير الكيمياء، أو كان للكنز كما يقال رصد، إن هذه القدرة مفتاحه. نعم هذه القدرة هى أكسير الكيمياء، ومفـتاح الكنوز؛ فعول عليها، ودع قول المغاربة والـكتب العتيقة.

هؤلاء العلماء، وكلهم كانوا أطفالاً، أخرجهم الله من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجهوا هذه القدرة، والقدرة هى الوسيلة الحقة إلى كل شىء، إلى العلم، فأصبحوا علماء. وهؤلاء الأغنياء، الذين لم يرثوا المال عن أب ولا أم، جدوا فزايلوا الفاقة، واستولوا على ثروة واسعة، بإعمال قدرتهم، والقدرة هى الوسيلة الحقة إلى كل شىء.

فالمنشاوى باشا، كان مبدأ أمره فى عمل صغير لا يملك غيره، فجد حتى صار إلى ثروة طائلة، وترك ميراثًا منه بضعة عشر ألف فدان. والناضورى، ذلك التاجر الشهير بالإسكندرية، الذى أتى على موته بعض سنين، كان مبدأ أمره أجيرًا، ثم جد حتى صار فى ثروة واسعة. وويصا بُقطر، المثرى الشهير بأسيوط، كان غلامًا يتيمًا فقيرًا، لا يملك شيئًا. وسوارس الذى ترى من ثروته آثارًا فى كل طريق، كان غلامًا يتيمًا فقيرًا. وعلى باشا فهمى، الذى مات قريبًا وخلّف أموالاً جزيلة، كان فقيرًا، وصار إلى ما صار إليه بالجد؛ ولكننى لا أرضى لك أن تكون بخيلاً كبعض هؤلاء. وما أحقر ثروة لا تُشاطر فيها المروءة والحمد!

إنك مسئول عن جِدك لأمرين: أما أولهما، فإن الكمال من حق نفسك عليك، وما أنت ببالغ الكمال إلا بالجد، كما لا تستطيع أن ترقى بغير سلم. وأما ثانيهما، فإنك مُطالب لقومك بالعمل، لأنك تجد سعادتك فى أعمالهم، فعليك أن تعمل لهم عملاً يجدون فيه سعادتهم، حتى لا تكون وضيعًا صغير النفس، يستحل شىء غيره، ولا يعوضه عنه ما يستطيع.

لُودُن النباتى، كان غلامًا لبستانى، وكان يدرس ليلتين فى الأسبوع، حتى تعلم اللغة الفرنسية، وترجم سيرة شهيرة، قبل أن يبلغ الثامنة عشرة.

ولما بلغ العشرين من عمره، كتب فى مفكرته: «الآن قد بلغت السنة العشرين، وربما كان ثلث حياتى قد مضى، فما هو العمل الذى عملته لإفادة بنى نوعى؟» فعسى أن تجد أيها الطالب من نفسك هذا الشعور الحق، ولو بعد وصولك إلى ضعف هذه السن! إن الطبقات المختلفة من هذه الأمة، ليس لها آثار تدل على جد ونشاط، لا تفضل طبقة منها الطبقة الأخرى. هذه طبقة الزراع واقفة فى مكان لا تتجاوزه صنوف من المزروعات محدودة، وطرق لزراعتها مألوفة، لا تتخطاها، ولا تصلح منها شيئًا. وهذه طبقة الصناع، فى يدها بقايا ورثوها عمن قبلهم، عاكفين عليها يعملون فيها عمل الآلات التى فى أيديهم. بل هذه طبقة المشتغلين بالعلوم والنفوس، لا يفضلون من قبلهم. تبلغ كل الأطفال أشدها وعلومنا ومعارفنا وطرقنا، لم تزل بعد فى عهد الطفولية. وبالجملة، فالروح الضعيف العام السارى فى مجموع الأمة، ظاهر فى كل طبقة من الطبقات، كالنهر تتصل به جداول صغيرة فيبقى سطح الماء فى جميعها على ارتفاع واحد.

أيها الناس! إنكم إلى قول الحق، وتنبيهكم إلى مواضع نقصكم، أحوج منكم إلى المدح والنفاق. وإن الذى ينبهكم بنية سليمة إلى مواضع نقصكم، إنما يبغى صلاحكم. أما الذى يبحث عما ترضون عنه، ولو اختلط بالنفاق، فإنما يبغى صلاح نفسه. إن الكسل أفسد فينا كثيرًا، فعلينا برأب ما أفسده فينا الكسل.

إن كان الفتور، والاكتفاء بتحصيل الصور الظاهرة، مما لا يلام عليه الذين يعملون فى المادة، كالصناع، لومًا موجعًا، فما أشنعها ذلة أن يكون الاكتفاء بالصور الظاهرة، يقع من الذين يعملون فى العلوم وتقويم النفوس؟!

فإن هؤلاء غير مسئولين عن صور وهياكل، إنما هم مسئولون عن الروح السارى فى الأمة.

لتكن أعمالنا حية باستقلالنا وروح منا، وإلا كنا ممن يكثر الجز ويخطئ المفصل. لا نكون كإخواننا الأزهريين، يعملون كثيراً وليس لعملهم أثر. ذلك بأن روح الاستقلال السارى فيهم غير كاف.

إن الأمة، مع ما منيت به من قلة الأعمال، وضعف الروح فيمن يعمل، ابتليت بكثيرين لا عمل لهم، فى ذواتها الذين تكلمنا عنهم فى الصبر.

وأنواع الشحاذين، ما بين سائل، وزامر، ودفاف، وقائد لقرد، وكلهم شحاذ، هؤلاء جميعهم لا يعملون شيئًا، ويشاركون الناس فى ثمرات أعمالهم. يُلقون أوزارهم على كواهل العاملين، والعاملون لا يستطيعون النهوض بأنفسهم، فهم كما يقال فى المثل «إن ضج فزده وقرا».

إن هؤلاء الأعطال، لا ينبغى شرعًا ولا عقلاً مدهم بشىء، ب يجب الصد عنهم، وتركهم تتخطفهم الفاقة، حتى يذوقوا من بطالتهم آلامًا، كما يأتى فى السخاء إن شاء الله. إن فى ترك العمل، وعدم الجد، مضار كثيرة، والمرء الذى لا يأخذ بالجد، يظلم نفسه، ويظلم الناس الذين يعيش معهم.

بالبطالة يُخمد الرجل جذوة فكره، ويعود جسمه الترفه والعجز، فلا يجد منه خادمًا صالحًا.

فى الطبقات، من رواية البخارى ومسلم، أن النبى ﷺ استعاذ من الكسل، وعن على رضى الله عنه أنه قال: «إنى لأرى الرجل فيُعجبنى، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا! سقط من عينى».

وقال بسمـرك يومًا فى مجلس النواب «لا نعـد الرجل، ليس له عمل، كاملاً».

إن القوة البهيمية تخرج بالعاطل عن الاعتدال، فيصير إلى الفساد، ولا سيما إذا وجد عضدًا من شبابه وماله.

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

يبين لنا أن أكثـر الشرور التى تقع، يُسـعر لظاها الأعطال، فـإذا بحثت عن سيرتهم، رأيت المستقيم منهم نادرًا أو مفقودًا.

ولا يفوتنا تخـصيص أقراننا بـخطاب: فأنتم أيها الإخـوان خريجى دار العلوم! قـد شدت بكم اللغـة العربـية أزرها، ووجـدت منكم ملجأ لهـا فى المدارس، وأصبح شبان الأمة بعنايتكم يعرفون لغتهم على وجه مناسب، وكثر فيـهم الكُتَّاب. ومن أراد أن يغمط حـقكم، ويحط من شأنكم، فليـقابل بين الشبـان والكهول الذين تعلموا فى عـهدكم، وبين الشيـوخ الذين تعلموا فى عهـد سلفكم، فإنه لا يجد بدًا من الاعـتراف بما لكم. نعم يؤخـذ علينا بعد هذا، أن عددًا منا لا يُعنى ببسطة علمه. يجد عنـدما يُتم دراسته فى إجادة ما يلزم للتـعليم الابتدائى، من القـواعد والأمـثلة، حتى إذا علم السنة الـرابعة بكفاءة تروقه، أو كفاءة ما، أسند ظهره، وألقت عصاها واستقر بها النوى.

يقتل عدد منا زمنه بالجلوس فى القهـوات، وسط العامة؛ وبعضنا يؤدى عمله كمـا تؤدى الآلات عملها، لا يعنى إلا بانتقـال الدرجة وزيادة لراتب. إنه، ليس كل واجـبنا فى أن نعـطى قواعـد النحـو، سـهلة مـقـربة لأذهان التلاميذ، مُجلاة بالأمثلة والشواهد!

إذا فتشنا عن المطالبين أمام الله تعالى لأمتهم بتهذيب نفوس أبنائهم، وبث الفضيلة فيها، وغرس مبادئ الدين حتى تثمر ثمرًا طيبًا، لا نجده غيرنا.

وإذا بحثنا عمن فى عنقه تهذيب قواعد اللغة العربية، لا نجده غيرنا. وإذا بحثنا عن المطالبين بإصلاح مؤلفاتها وبعث روح من النظام فيها، لا نجده غيرنا.

بل إذا بحثنا عمن هو المطالب بإصلاح نفوس العامة، قدر ما يتيسر، ووضع الكتب المناسبة المقومة لأخلاقهم، لا نجده غيرنا. وإنه لا يتيسر لنا جميعًا الكمال إلا إذا ثابر أفراد منا على دراسة اللغات الأجنبية، حتى نترجم ما نحتاج إليه، ونحن محتاجون إلى كل شىء.

قررت نظارة المعارف جعل التعليم باللغة العربية، وهو مشروع إذا استقبله التجار مثلاً بأحسنت، لا يجوز أن نجلس معهم فى القهوة، ونقول مثل ما قالوا، بل يجب أن نشعر بالواجب الذى ألقاه هذا القرار على كواهلنا.

يجب أن نشعر بالواجب الذى نطالب به لهذا الجمهور الذى يسعى فى خدمتنا؛ وإلا فما أحرانا ونحن جلوس على القهوات فى قتل أوقاتنا، بأن يسخر بنا هذا الجمهور، وينظر إلينا نظره فى أحقر الصناع!

أما أنتم أيها الطلاب! فإن ما أنتم فيه من الجد، لا يُطلب من المرء أكثر منه، ولكنى ألفتكم إلى قرن هذا الجد بالاستقلال، فإن الاستقلال روح العمل. وعسى أن ترفعه من بعد همة عالية عن قتل أوقاتكم على القهوات، بمعزل عن واجباتكم؛ وعليكم بالسعى فى نفع الناس والمحافظة على الوقت، إن الوقت نفيس.

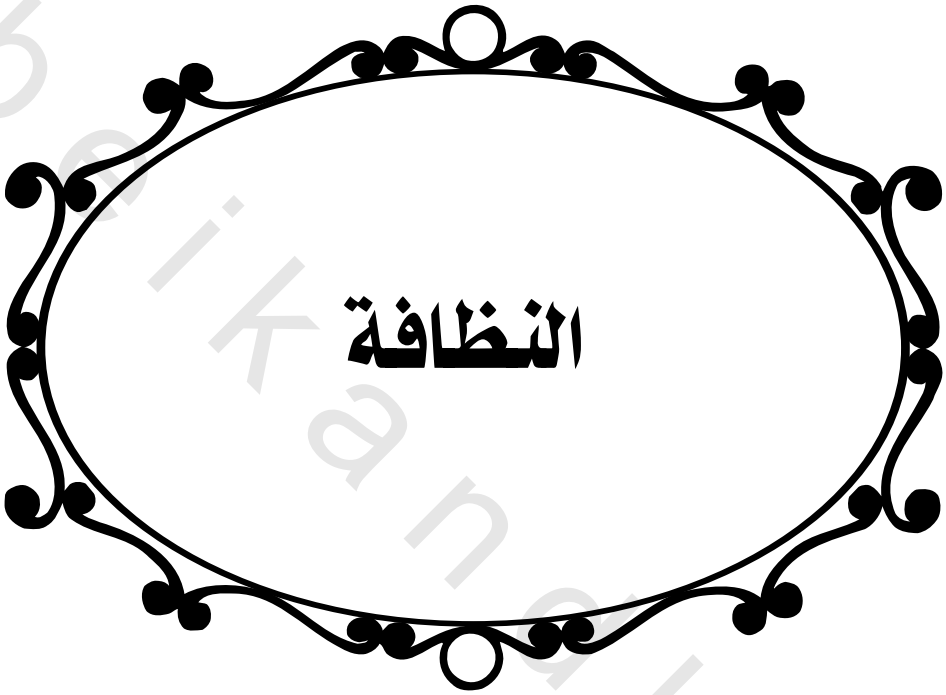

obeikanal.com

النظافة

إذا كان الظالم يصير إلى الظلم لما يجـد فيه من شفاء النفس، والكذاب يصير إلى الكذب لما يرى فيه من جلب منفعة أو دفع مضرة، فما هى الثمرات التى يراها الوَسِخ من وصخـه، غير أنه لا يرى؟! وما هى الفائـدة التى يشعر بها غير أنه لا يشعر؟!

إنه لا يستطيع أحد أن ينازع فيما وصلت إلـيه الطبقة المتعلمة فى الديار المصـرية من النظافـة فى هذه السنين. كنت فى سنـة ١٢٩٨ هجرية تلـميـذًا بمدرسة الجماليـة، فكان تلاميذ المدارس حينئذ أقل نظافة من تـلاميذ الكتاتيب الآن. كان بعضهم يأتى إلى المدرسة وفى رجله قبـقاب، وبعضهم يجىء غير منتعل، وأذكر من هؤلاء الحُفاة تلميـذًا اسمه جوهر، لم يكن ينتعل فى السنة يومًا، وكـان للوسَخ أثر أسود على ظهر قدمـيه، لم يفارق بعد مـرآه ذاكرتى على ضعف فيها، وسيبقى عالقًا بها. وقل فى طرابيشهم وثيابهم ونعالهم من البِلَى والتباين ما تشاء. أما الآن فـإنك لا تجد مثل هذا فى الكتاتيب، كتاتيب نظارة المعارف. وإن التقـدم فى النظافة قد سار سيـرًا حثيثًا. غِـبت عن مصر أربع سنين، وعدت إليها من سبع سنين، فرأيت فى النظافة والأزياء تقدمًا أى تقدم.

إن مـخالطتنا للأوروبيين، وهم بلا شـك أنظف منا، أثرت فينا تأثيـرًا حسنًا؛ كما أثرت فينا مخالطة الترك، الذين ينبغى أن يعزى إليهم، خصوصًا، إصلاح بعض بيـوتنا، لاشتداد اتصالهـم بأسرتنا. إن كان الترك يبـعدون فى ساتقامة الذوق عن الأوروبيين شيئًا، فإنهم، قدر ما أعرف، يماثلونهم فى أمر

النظافـة أو يكادون. ولكن رغم هذا بقيت الأسـرة المصرية مـتأخـرة فى أمر النظافة، وإن كثيراً جداً مما يكدر السلم فيها، مسبب عن إهمال شأنها. نعم، إن المرأة تهتم بأمر النظافة، وتحسبها بحق من قبيل الزينة التى هى مولعة بها، ولكن هذا الاهتمام أو الحسبان راجع إلى نظافة نفسها فقط. والمرأة النظيفة فى ذاتها، كثيراً ما تؤخذ عليها أمور فى نظافة منزلها وأولادها.

وإن سـواد الناس، وهم لم يخـالطوا الرك والأوروبيين، لعلى تقـهقـر يظهر فى صور شتى!

عـيوب مطاعـمنا (لوكـانداتنا للأكل) ليـست رداءة اللحم، ولا سـوء الخضـار؛ إنما هو الوسخ. عندنا كثيـر من المطاعم، ومحال الأكل المخـتلفة، ولكن النظيف منها معدوم. المحل، والخادم، والأدوات، يبـارى بعضها بعضًا فى الاتسـاخ، «وإن الشِّراك قُـد من أديمه». لا يستطيع نظيف أن يصـيب من الأكل فى هذه المحـال، وإن أغمض فيـه. وإذا اشتـهر عندنا صـانع بنوع من الطعام، لا يجد على شهرته إقبـالاً، ولا ينال من الربح ما يقتضى اسمه. إن داءه العُضال، والعقبة فى طريق الناس إليه، هما بُعده عن النظافة، وزهده فى الترتيب.

لا يستطيع واحـد من أغنيائنا أو متوسطينا، أن يجـهز وليمة يُعنى فـيها بالنظافة ويراعى التـرتيب، إلا إذا وكل الأمر فيها إلـى عمال من الأوروبيين. ما أحـوج الناس إلى النظافـة والترتيب! وبالجـملة، إن الطعام الذى لا تمـسه صناعتنا، أشهى إلى النفس وأقرب إلى الصحة.

باعـة الشـراب عندنا كـالخـروب ونحوه، يُعـرض عنهـم النظيف على عطش. يلبس واحـدهم غالبًـا لباسًا قـذرًا، يجعل علـيه فوطة مـثله؛ ويداه

ورجلاه، وقلما تُكنهما نعلان، لا تخلو من وسخ. ويحمل آنية فيها الشراب، وفى إحدى يديه أكواب أو كيزان لا تسكن حركتها، ولا تهدأ صلصلتها، بصوت لا ينفتح له سمع، ونغمة لا يعتريها تغير؛ وفى يده الأخرى إبريق من الصفيح صغير، ربما وسع رطل ماء، يغسل به الأكواب لمن يحتشمه. فإذا استسقاه أماله فى الكوب أو الكوز، حتى يكاد يجعل عاليه سافله، إلى أن يسيل من بلبله الدقيق دراهم فيه، فيرُجه بذلك الماء رجًا هينًا، يأتى على بعض سطحه، اجتزاء شافعى فى مسح رأسه للوضوء، ثم يرمى بمائه إلى الأرض، وقلما يسمع له ركز، ثم يعده للصب فيه، ويسلط عليه القدر حتى يفيض على يده، ويكون للأرض منه نصيب. إنه فى يدٍ موفقة للاتساخ، لا فى يد كريم. ويناولك إياه، والشراب يتقاطر من كليهما، ولولا مد يدك إلى الأمام مدها للسلام، وانحناؤك للإصابة منه، لأصاب لباسك منه قبل؛ ، يفعل هذا، وزميله الأوروبى أمامه، وبين يديه نحو عجلة صغيرة مقفلة؛ أما باطنها فقد تضمن الماء النقى، وأما ظاهرها فقد رصف عليه الأكواب، إلى ما يستدعيه إتقان عمله.

قهواتنا لا تصلح للجلوس، ليس لأن بُنها ردىء، ولا لأن ماءها من غير ما فى أيدى أنظف الناس؛ داؤها العضال الاتساخ. المحل غير نظيف، والأدوات لا تكفى نظافتها؛ وإذا نبهت الخادم، بادر إلى تنظيفها، بيدٍ أحوج منها إلى النظافة. هذا إذا صح فى ذهنه ما تقول، أو احتشمك، وكثيرًا ما ينكره عليك.

الفنادق عندنا، لا يلجأ إليها إلا مضطر ساقته الحاجة، داؤها العضال اتساخها. إذا جُعلت (اللوكاندة) أو الفندق فى بناء جديد، فما هو إلا زمن

قصير حتى ترى البناء قذرًا، يسبح فيه البق، وتهتدى إليه العناكب، كأنما أتت عليه أحقاب من الدهر. ومثل هذا يقع أيضًا فى بيوت بعضنا، ولو قصورًا مشيدة، حتى لا يستطيع خِدن النظافة اضطجاعًا على فراشها، إلا إذا بسط عليه شيئًا.

خادمونا وخادماتنا فى منازلنا، من عيوبهم التى لا تغتفر، الوسخ. فما هو إلا ريثما تقل عناية أصحاب البيوت بالنظافة، ويهملون قليلاً فى قيامهم عليها، حتى يعود المنزل كاللوكاندة الحسينية أو الزينبية.

إن كثيرين منا يستخدمون الأوروبيات بالأجور الغالية، حتى يريحوا شعورهم بما فيهن من النظافة، بله حسن الترتيب. نتهم أولئكم بالتفرنج؛ فنحن ظالمون وهم معذورون. إنهم يقدرون النظافة حق قدرها، وتُنيلها أنفسهم النقية عناية.

إنك تجد الأحياء الوطنية، بيوتها وطرقها، سواء فى القاهرة وغيرها، دون الأحياء الأوروبية. فإذا نظرت إلى جهة الباطنية وما يضاهيها من الجهات التى نحن قُطانها، وجدت خارج البيت وداخله ينُم على اتساخه، وفى أول ما ينم عليه بقه وبراغيثه. إن كان سكان هذه الأحياء، لفقرهم، لا يستطيعون أن يصلحوا منازلهم كل الإصلاح، فلا يعجزهم أن يزيلوا ما يعلق بشبابيكها، وينظفوا سقوفها وزواياها من التراب والعناكب، التى تهتدى إليها اهتداء القطا، ويوالوا غسلها بالماء، ويُجنبوا صحونها القذر الذى يُطرح فيها. ألست تجد فى هذه الأحياء، أن الطرق التى ليست حافلة برجال الشرطة، وإن كانت حافلة بالسابلة، يضى الناس فيها حاجاتهم، قيامًا وقعودًا، على مقربة من الجوامع المنتشرة فى تلك الأحياء، وفيها تكثر المرافق (المراحيض)؟! ألست

القطاط أهدى إلى الصواب، وأقرب إلى النظافة؟! كثرت الكتابة على الجدران بكف الناس وهم لا يـكفون! ألـم تك هذه الكتـابات الكثـيـرة شـاهداً على تساهلهم فى أمر النظافة؟! إنما كان ترديد البـبغاء عندنا لألفاظ السب، شاهداً على تساهلنا فى آداب القول، وأن الهُجر أعلق بألسنتنا!

إذا حضرت احتفالاً، كالجمعة، عثر بصرك فى ألوان من الساهل. فمن سائس حاضر الاحتفال بحاله، كما كان يغسل الحصان؛ أو نحاس تشهده كما كان يستدير فى طشت أو غطاء ليجلوه قبل عرضه على النار؛ أو مجلد يجىء إليه كمـا كان، وعلى حجره قطع الجلود الملونة الندية! ولا يخطر ببال واحد من هؤلاء، أن الذى خاطبنا بشـهود هذا الاحتـفال، خاطبنا بأن نغـتسل له، ونذهب إليه فى الثوب النظيف! هذا إلى أن الجامع قـد يكون قذراً، وحصيره بالياً وسـخاً، وللطير عـليه أثر غيـر حميـد، كجامع الدرب الجـديد، بقرب السيدة، ساقنى إلى الصلاة فيه قُربه من منزلى.

أما فى القـرى فيلقى كل قـذر يخرج من البـيوت بينها، ويبـقى السنة والسنتين، حتى يصير كثباناً، ويا ليـتها كانت من الرمل! وتطيف بالقرية المياه الآسنة، وتتخللهـا، وآونة تختلط بها مـجارى الجوامع. وهناك تُبنى البـيوت بغير مـرافق إلا نادراً، ويقضى الأولاد حاجاتهم فى الطـرق. وأكثر الناس لا ينتعل، وبعض هؤلاء ينتعل يوم الزينة. ألم تر إلى الناس، وخصوصاً هناك، يرون عدم استعـمال الماء شفاء من أمراض كثيـرة؟! يعالجون به الجراح! ومن البين أنه لولا تنظيف الجـراح لسارع إليـها الفـساد، والرمد! ومما يغـمس فى العجب، أن بعضهم يُضيف إلى العـلاج روث الحمير، والعين عضو لطيف، ينبـغى أن يجنَّب القذر وإلا سـارع إليه الفسـاد! ولو نظرت إلى عيـون الذين

يشتغلون فى المرافق يطهـرونها، لأيقنت بصحة القول! ويعالجـون به الحصبة، ويجعلون اتسـاخ الأولاد ترسًا يرد عنهم كل حـسد؛ ولو كانت وظيـفة العين الحـسد، لا الإبصـار، لكانت أبقى عليـهم من هذا الاتسـاخ الممقـوت. إن الناشئين، وخـصوصًا هناك، لا يعرفـون شيئًـا من أمر النظافة. وحسـبك ما تراهك فيـه من رمص العينين، ودنن الأف، وتناول القذر لجمـيع وجوههم، وسقـوط الذباب عليها! وإن أحـدهم ليُحمل عـلى غسل يديه، كمـا يحمل الكريم على نقيصة! وإنه ليساق إلى الاستحمام، كما يساق إلى الموت! إنه لم يعوّد النظافة!!

لا يستطيع متـأمل أن ينكر أن الأوساخ تفسد الجلد، كما يفـسد الصدأ الحديد. كنت وفى عهدتى تفتيش الكتاتيب، كتاتيب نظارة المعارف العمومية، أجد أن كل كُتـاب منحط فى النظافة، يوجد فيـه قرع؛ وكان هذا المرض يبين فى أبشع صورة فى القرى، وخـصوصًا فى الوجه القـبلى، لأن نظافته أقل. وفى ظنى أننا لو اطلعنا على إحصـائيات للأمراض المقتـرنة بالاتساخ، لعلمنا من أنفسنا تقصيرًا أى تقصير!

وبالجملة، فإن اختطاط الدور فى القرى بلا مرافق، وعدم انتعال أهلها، وأكل الناس فى آنيـة واحدة، خـصوصًا السـوائل، بلا مبـالاة بأن هذا الآكل نظيف وذاك وسخ ينبـغى تجنبه، وشـربهم كـذلك، ونحو التـمسك الشـديد بالميضآت يبصقون فيهـا ويمتخطون، ويغسلون وجوههم وأفواههم، بله التبرك بها فى الموالد، علـى زيادة قذرها، وعدم الرضـا بأن تبدل منها الحنفـيات أو الصنابير فيـما يقولون، وأمور أخرى لا أسمـيها، - كل هذ يدل على أننا لم نزل بعـد فى طور البداوة، أو قـريبًا منه، وأننـا لم نُعمل فى سـبيل النظافـة أقدامنا إعمالا يذكر.

ليس ينسى الكثيرون ذلك الجدل العنيف، الذى قام بشأن الحنفيات والميضآت، كما لا ينسون أن سواد الناس وقادتهم من المشتغلين بالعلم، كانوا على اختيار الميضآت. إن القول بأن الميضآت أخلق بالاستعمال من الحنفيات، كالقول بأن سربال الطباخ أنقى من مرآة الغريبة، وأنظف من قلب المؤمن! فى ظنى أن الذين لا ينظر إلى أمر الآنية أو اللباس مثلا، إلا بنحو إرشاد عام، كاختيار ما هو أنظف، أو أقرب إلى الحشمة؛ ولكنها الحضارة تُحل هذا اليوم وغدًا تصيب خيرًا منه، فتحرم القديم وتحل الجديد!

نتج من عدم نظافتنا أمور: أن ضاق الرزق على كثير منا فى بلاد رزقها واسع، وساء حال الذين يحترفون بعمل الأطعمة ونحوها، وحاربنا كثير من الناس فى ديارنا فانهزمنا أمامهم، هزمنا الاتساخ وسوء الرتيب فى كثير من المواطن، وابتلينا بالأمراض نحن وأبناؤنا الذين وقعوا تحت رعايتنا، وتكدر السلم فى أسرنا أونة وأحيانًا كثيرة؛ كل هذا لأننا ما رعينا النظافة حق رعايتها.

خزى وعار على أمة القرآن أن يكون قسطها من النظافة هكذا! وقد جاءها الدين الإسلامى من أكثر من ألف وثلثمائة سنة مفعمًا بها. حكى الغزالى عن النبى ﷺ «بنى الدين على النظافة». ويروى «النظافة من الإيمان».

وليس هذا كل ما جاء به الدين الإسلامى فى النظافة، بل هناك باب الطهارة، باب كبير لتفصيل أمور الطهارة والنجاسة. وليس معنى الطهارة إلا النظافة، ولا النجاسة إلا الوسخ، إلا ما كان تعبديًا. ألا ترى كيف تجرى الطهارة على لسان الطب، بدل النظافة؟! هذا بأن الطهارة تشعر بنظافة أدق، وهو ما يريد الطب.

فـرضت الشريعـة على كل مسلم أن يطـهر ثيـابه ومكانه من النجاسـة ويتوضأ، وإلا فلا عبادة له، أليس معنى الوضـوء أيضًا النظافة! خاطبته بنقاء نفسـه وثيابه من كل مـا يستـقذر فى جـميع الأوقـات، مع التشديـد فى أمر المستكره منه؛ وجعلت عليـه أنواعًا من الاستحمام والوضـوء، وغسل اليدين والفم، وترجيل الشـعر ومس الطيب، خصـوصًا عند شهـور الاجتمـاعات؛ وأرشدتـه إلى السواك لتنظيف الفم فى كـل حال؛ كمـا أرشدته إلى مـواضع تغـيب العناية بهـا، كداخل الأذن وتحت الأظافـر؛ وكـما أرشـدته إلى قص الزوائد، كتقليم أظفـاره. ومن أراد الوقوف على التفصيل فليـرجع إلى كتاب من كتب الفقه، كالإحياء للغزالى، فإنه يجده فى الجزء الأول منه.

والذى يهمنى أن أقـول إجمالاً: إن الدين الإسـلامى دين النظافة؛ وإنه يشمـئز جدًا من الوسخ ويطلقـه على الخبيث، كـقوله تعالى: إنما المشـركون نجس؛ ويهش إلى الطهارة، ويطلقـها على الطيب من كل نوع. وآيات التنزيل حافلة بهذا.

وإنى، مع امتلاء نفسى بأن الدين دين النظافـة، التمست آيات صريحة من الكتاب العزيز فى شأنها فلم أقع عليـها، فكلفت الحافظين المشتغلين، فلم يهتدوا إلى شىء، فامتلأ فؤادى عجبًا! ولما ألقى فى نفسى أن الطهارة والنظافة شىء واحد، كمـا أن النجاسة والوسخ شىء واحـد، خِلتنى أتيت بجديد لم يهتـد إليه من قبلى! والأمـر بديهى، خصوصًـا لمن كان مجـاورًا مثلى، لولا تعليم لا روح فيه!

إن تعليم كثير من أمور الشريعة فى الأزهر جاف وجامد، وإنه إلى إماتة النفوس أقرب منه إلى حـياتها، وإلى العبث بهذه النفوس البـشرية أقرب منه

إلى صلاحـها. لا أطيل الآن، وإن كان للقول مطرح، وأكـتفى بإبداء رأيى، عسى أن يكون صالحًا فى تعليم هذا الباب، باب الطهارة.

أولاً: توجيه الطالب إلى أن الطهارة هى النظافـة التى تعرفها على حال أدق، حتى يتـصل ديننا بحـال من أحوالنا، وحتـى إذا مر بمسائل البـاب نظر إليها نظرًا صحيحًا نافعًا.

ثانيًا: كـمال الطهارة فى الـدين الإسلامى، وسبـقه فيـها على الأديان الأخرى، حتى يرسل الدين جذره فى نفوس الطلبة إرسالاً، وحتى يقيموا منه لأنفسهم وغيرهم، إذا اقتضى الحال، حجـة عملية قوية. فعصر اليونان الذى كان يسبح فيـه الخيال ما شاء – تقضى، وهذا عصـر أوروبا وأمريكا، يقتضى نظامًا آخر.

ثالثًا: النظر فى ثمرات الطهارة، ومضار النجاسة.

رابعًا: عرض الفـروع التى أتت فى الباب مع آراء العلماء فيـها للبحث النافع، مع النظر فى بقية أصول الباب، كما به يكون التطهير.

خامـسًا: إعـارة أحوال الناس لفـتة، حـتى يرتبط الدين الذى نتعـلمه بالعالم الذى نعيس فـيه. فإنه ما دامت الصلة قوية بـين علمنا وعملنا، سرى فينا حقيقة روح طيب، وتم لنا من الخير ما نحاول.

***

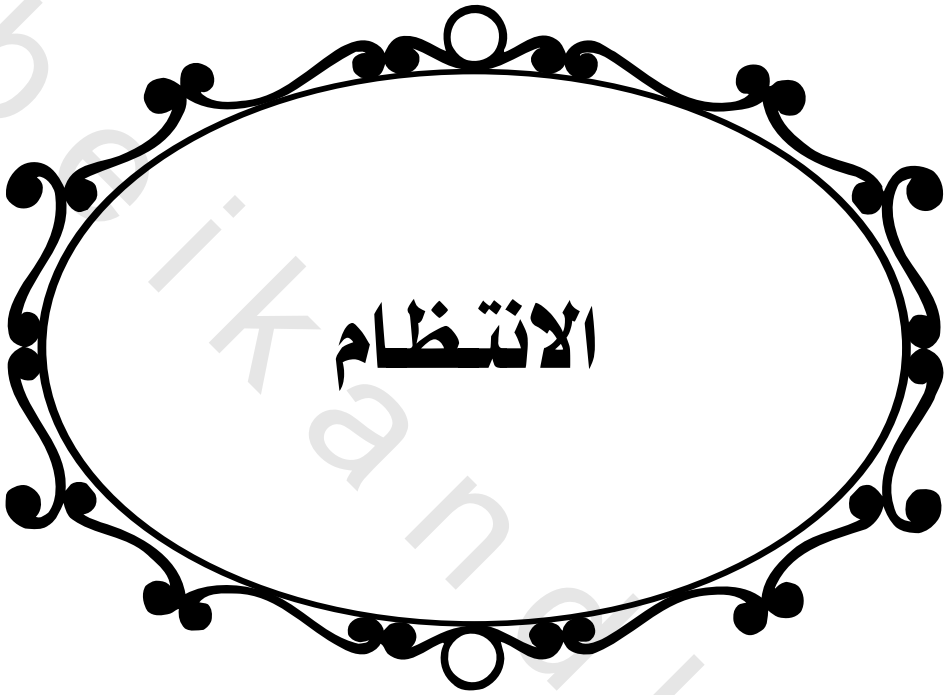

obeikanal.com

الانتظام

ليس الانتظام، كما قد يتوهم كثيرون ممن لا يعيرون الأشياء من النظر حقها - أمرًا راجعًا إلى إبراز الأشياء فى صور مزخرفة، تسر الناظرين، وتخلب عقولهم؛ بل يرجع إلى حسن تقدير الأشياء وترتيبها، كما ينبغى، وذلك واجب ضرورة فى كل شىء. الشخص، والأسرة، والمدرسة، والحرف والصنائع، والأمة، كل أولاء يجب أن تبنى أمورهم على أساس متين من الانتظام، وإلا اختلط بها الفساد.

أما انتظام الشخص فيرجع إلى ترتيبه فى ذاته، كاستواء أعضائه، وصحة وضعها فى حركة أو سكون. وإن كثيرًا من الرزايا، التى يتجشمها المارة بمرأى منك على السبيل، من ترد فى حفرة، ومصادمة جدار، وتصد للكهربائية تصنع ما شاءت الأقدار، حاصل من الغفلة عن الانتظام. وإن المتعرضين غالبًا لحوادث الطريق، وما إخالنى مخطئًا، من المعروفين فى أحوالهم بعدم الانتظام. فذلكم أعدى الناس إلى الخطر، وأهداهم إليه. وكذلك ترتيب لباسه، فلا يجعل الجبة طويلة فوق الحاجة، وإلا تعثر فيها وتمسك بأذيالها الثرى، وقادها إلى البلى. إن عدم الانتظام فى اللباس مناف للاقتصاد، مناف للحشمة. فمن قدم عليه رجلان لا يعرفهما، ، هذا منتظم فى لباسه، وهذا غير منتظم، وقَّر الأول وهان عليه الثانى، حتى إنه ليحل بنفسه محل السخر منه، والعبث به. وكذلك ترتيب قوله، فلا يتكلم فيجمع بين الأروى والنعام، ويجعل الأول آخرًا والآخر أولاً، وإلا أتعب السامع، وأفهمه أحيانًا غير ما يريد؛ فآنًا يفوته غرضه من القول، وآنا يدعى كذابًا.

وترتيب عمله، وإلا لم يفلته الإفراط أو التفريط، ولم يلق راحة. وفى كتاب بولزن: من أخذ على الطريق بعد فوات ربع ساعة، أخذه عامة يومه عذاب شديد. وترتيب أكله وشربه، ويقظته ونومه، وإلا هزل جسمه، وعدل به عن طريق الصحة، والجسم خادم توحى إليه بأمرك، فلا يستطيع خروجًا عن طاعتك؛ وإذا مرض استحال صفوك كدرًا، ولم يصب بعض غرضك قضاء، ولو اجتمع خدام الدنيا، وكان بعضهم لبعض ظهيرًا. وبالجملة، فإن النظام مطلوب من الشخص فى جميع أموره، حتى فى الحركة يأتيها بيده، والإشارة يأتيها بأصبعه.

وأما انتظام الأسرة، ونعنى المنزل الذى تقيم فيه، والسيد والسيدة، ومن لهما من الأولاد والأتباع، فيقتضى أن يتعهد المنزل تعهدًا مناسبًا للأسرة، ومن حين استئجاره، أو ابتياع عرضته، حتى يكون ترتيبه منطبقًا على جميع أحوالها؛ وإلا كان كالسجون، إنما يلبث فيها مضطر. كما يقتضى أن يؤدى الرجل ما عليه بترتيب صحيح وضبط، كأن يحضر فى أوقات الأكل المقررة، ويجعل أعماله على وجه يمكنه من أن يكون مع الأسرة وقت اجتماعها، حين تتم الأم عملها، ويرجع الابن من المدرسة، والبنت من حيث تتعلم. إن على الرجل لأسرته لدرسًا لازمًا، لا يحل له أن يضيعه، وإن فى وجوده بينها لقسطًا لها من السرور وافيًا، لا يحل له أن يمنعه. إنه الراعى فيها، وكل راع مسئول عن رعيته. كما يقتضى أيضًا أن تؤدى المرأة ما عليها للأسرة بترتيب، فإن المرأة هى المباشرة لجميع أمورها المنزلية، والفطرة تحتم عليها ذلك، وإن كان للرجل السلطان عليها، وبيده زمامها. المرأة هى المربية للولد، المرتبة للمنزل، المتصرفة فى الحاشية، وإن ترتيب المنازل صورة من عقول السيدات

العامـلات. المرأة مع بيتهـا، كرجل نوى سفـرًا مع صندوقه، فإذا وضع فـيه نعاله وطرابيشـه وثيابه داخلاً بعضها فى بعـض بغير ترتيب، لقى كل نوع من الآخر صـنفًا من التلف، وسـاءت الصورة، وربما احـتاج إلى شـراء صندوق آخر. أمـا إذ أحسن تقـسيم الصندوق، ورص أنواع الملابس رصًـا حسنًا أمن تلفهـا وحسنت صورتها، ووسـعها فراغ قليل. المرأة إذا عُنيت بتـرتيب أثاثها أصابت الأسرة بذلكم من الراحة والاقتصاد جانبًا عظيمًا. إنها تستغنى بالقليل من الأدوات، والضيِّق من الحجر، والصغير من البيوت. يمكنها بواسطة ستائر من الخشب الجميلة مثـلاً، تقسيم رحبتها، وحجرتها الكبـيرة إلى أقسام شتى تتخذ كل واحد منها اتخاذ الحجـرة، وتعده لعمل خاص. إنها بواسطة ذوقها الصحيح، وتصرفـها الحسن وترتيبها الجمـيل، تهب لأسرتها، من وقت إلى آخر حُجرًا جديدة ومسكنًا طليًا. إن كـثيرًا من الأسر الأوروبيات التى يُشاقها الحظ، والتى ينقاد لها أيضًـا، تستأجر مساكن تبـسط فيها فرشهـا، وتهتدى، بحسن ترتيبها، إلى الاكتفاء بالقليل من حجرها، وتؤجر الباقى.

البيوت هى المدارس الطبيعية للبنات، يقضين فيها حياتهن قبل الزواج أو أكثرها، فإن لـم تكن قائمة على صحة الترتيب، أفـسدت أذواقهن الفطرية، وقلما يحصلن منها على ثمرة. إن كـان فى (السنية) أو (عباس) إعانة البنات من بعـد على أعمـالهن بما يتعـملن من بعض الوسائل، فـفى البيـوت نفس أعمالهن فى هذه الحياة وإن ملاكها الترتيب.

إن على المرأة شيئًا، أهم من ترتيب الأثاث، وأعظم خطرًا، ذلكم تنظيم ولدها فى أكلهم وشربهم، ويقـظتهم ونومهم، وراحتـهم وعملهم، حسبـما يقتضى الـعلم الحق. ثم إن كان لها حاشـية من طباخ وخدامين، كـان عليها الإشراف عليهم وردهم إلى النظام، كلما جاوزوه أو حاولوه.

ويقتضى انتظام الأسرة أيضًا، أن يـؤدى الخادم عمله بترتيب، وإلا ساء ما يعمل. فإذا كنت كاتبًا فى ديوان، وعليك أن تخرج من منزلك فى الساعة السابعة والنصف، حتى تدرك مـحل عملك من أول الوقت، أخر ذلك الخادم الذى لا يرعى الترتيب تنظيف الملابس، وألفيتك على الطريق تنظفها بمنديلك ويدك. إنه ليعـمل ما لا يحتاج إليـه الآن، ويشتغل عن إجـابة دعائك. وإنه ليقدم بعض الأعمال على أوقاتها، أو يؤجلها إلى حين عودتك، كترتيبك من الديوان، فيردك بابك المغلق، بعـد تجربة فتحه، والتمـاس المفتاح من مظانه، ويصرفك إلى قـهوة أو دار صاحب، تضيع فـيها الوقت، على حـاجتك إلى الوقت، حتى يعود ذلك الخادم. كما يقـتضى أن يؤدى الطباخ عمله بترتيب، وإلا آذى ضيـفك، وأخلف ترتيـبك. فإذا كنت امـرأ سريع الغضـب، سريع الجوع، لم تـلق من جوعك دون مـا يلقى الناس منك. حتى البـربرى الذى عمله فـى الجلوس على كرسى عند البـاب، إذا لم يوفق إلى النظام، لم ينج الناس من شره. فالمرأة التى يجب أن تنظر إلى ولدها آنًا نظر طبيب، وآنًا نظر مُرب، وإلى منزلها وحـاشيتها، آنًا نظر منظم صـحيح الذوق، وآنًا نظر مدبر عارف، لا تؤهلـها معـارف الأم الجاهلة لتـأدية واجباتهـا. إنه من اللازم أن تجلس للدرس أمام المعلم.

وأما انتظام المدرسة، فـيتناول انضباط أمورها العامـة، كأوقات الذهاب إليها والخروج منها، والعمل والفـراغ منه؛ ويتناول أخذ التلاميذ بالترتيب فى قولهم وفـعلهم، ودخولهم المكاتب وخروجـهم منها، وأسئلتهم وإجـابتهم، وجمـيع أمورهم. ويتناول أيضًـا ترتيب المعلمين لأقـوالهم وأفعالهـم، فإنهم القدى الصالحـة للتلاميذ. ومما هو جدير بـعناية المعلم ترتيب المسائل التى يقع

عليها الدرس، بأن يجعل كل طائفة منها فى موضعه اللائق، ولا ينصرف عن قسم إلى آخر حتى يتم الأول؛ لا أن يكون فيها كالذى يراوح بين رجليه، يقر على هذه وقتًا، ثم ينصرف عنها، ثم يعود إليها. إن ترتيب مادة الدرس من أهم ما على المدرس، ولولاه لم يكن لأكثر ما يُعلم التأثير النافع فى صدور التلاميذ، بل لولاه لم يفقهوا كثيرًا مما يقول، كما هو شأن بعض المدرسين فى تدريسهم. إن الطالب ليسمع المادة الخالية، من الأمور الاصطلاحية، فلا يجد غير ما كان يختلج فى نفسه، ويثبتها بغاية السرعة، لولا عقبات يجدها فى الطريق، من سوء الترتيب، ترتيب المدرس. إن الترتيب الصحيح عليه معول كبير. خذ بعض المعلمين تلاميذه الذين يعلمهم الإنشاء، بكتابة هذه الجملة، على غلاف كراستهم، أول شيء يخطونه فيها (عليك بترتيب الفكرة، وتسهيل العبارة) وكان يكلفهم أيضًا كتابتها على سبورات المكاتب، فى حصص الإنشاء، بخط جيد واضح؛ ومن وقت إلى آخر، يطرق بها سمعهم ويطرف بها بصرهم. وكان بلتى بك، ناظر مدرسة المعلمين التوفيقية من قبل، إذا دخل فصلاً من فصول مدرسته، فوجد النظام سائدًا، وقف قليلاً، وأحسن السلام على المعلم وانصرف. أما إذا دخل فوجد التلاميذ على غير نظام، وقطع الورق منثورة فى المكتب، أثر سوء النظام من قبل أيضًا، وبخ التلاميذ، وطالبهم برفع الورق، وطلب الباب مُغضبًا؛ وإن تكرر هذا من المدرس مرات، سعى فى نقله من مدرسته. هذه قاعدة رأيت من بلتى بك شدة التمسك بها، مدة إقامتى معه بالمدرسة التوفيقية، من سنة ٩٤ إلى سنة ٩٧. وإن قاعدة بلتى بك هذه مستقيمة كل الاستقامة، فإن المعلم الذى فى روحه الانتظام، وإن قل علمه، أنفع للتلاميذ.

أتدرون أيها الطلاب، لم كـان تلاميذ المـدارس الذين يتخرجـون منها، قبل أن تُنشأ مدرسـتكم هذه، لا يعرفون من العربية غـالبًا إلا بعض الأسماء الاصطلاحية؟ إن كثيرين من مـعلميهم كانوا من مدرسى الأزهر، الذين هم، وإن بالغوا فـى التدقيق، مـثل ما تعلمـون من الانفضـاض عن النظام والزهد فيه. وإن أكـثر ما ساعد إخـوانكم على أداء عملهم، حتى كـثر فى خريجى المدارس العـارفـون والكاتبـون، هو النظام. إن الانتظام أول الأوصـاف التى تستطيع المدارس أن تهـبها لتلامـيذها ما دامت قائمـة عليه، فإنه أمسـها بها. فعليكـم بالأخذ به فى جمـيع أموركم، والتـأمل فى قضاياه، ولا يـكن مبلغ نظركم إليه نظر العامة إلى صف من الجند، مرتب يسعى بين أيديهم.

وأما نظام الحرف، فـيقتضى الترتيب فى جمـيع أمورها؛ فإن كنت من العلماء أو طلاب العلم الذين تكثر كتبهم، فعليك بتـرتيب كتبك ترتيبًا نافعًا. ومن الخطأ أن تقيم بعـضها على بعض بغـير ترتيب، أو تضعـها فى صناديق كبيرة، حتى إذا عرضت لك حاجة إلى كتاب منها وقعت بين أمرين: فإما أن تلتمس الكتاب فتلقى منها تعبًـا، وتُضيع زمنًا، هذا إلى سرعة تلفها، وإما أن تعرض عنه، وتفوتك المسألة التى تطلبه من أجلها. وإن كنت مؤلفًا فعليك ثم عليك باستقامة الوضع وحسن الترتيب فى مـؤلفاتك، وإلا ساء السبيل إليها، كمـا ساء سبيل كب فـيه الدهر بناءً لطول عـهده. وازن بين كتابين، كـأقرب الموارد والقـاموس، تجد أن قليـلاً من الدقيـقة يكفى للعـثور على كلـمة فى الأول، أما الثانى فـرنك أحيانًا لا تعثـر فيه على الكلمة إلا بعـد نحو خمس دقـائق؛ هذا بحـسن التـرتيب فى الأول وسـوئه فى الثـانى، فـإن كنت ممن يشتغلون بالأمور اللغوية كثيرًا، سلبك القاموس زمنًا طويلاً. أما خلو الكتاب

من فهرس أو ترتيب يهدى إلى السير فيه، كالكامل، فجاعله متصلاً بسبيل الاتفاق، منقطعًا عن سبيل الحاجة، إنما يقع نواله عفوًا. وفى ظنى أن أوعر السبل إلى ما فى بطون الكتب، هى السبل إلى كتب الفقه، ففى كثير من الأحيان لا تلفى مذهبًا لتحصيل المسألة، إنما هو جولان فى المظان قريبة أو بعيدة، من كتب ما أضخمها.

فى أكثر الكتب الأوروبية، يؤتى فى أول الكتاب بفهرس كما عندنا، يشتمل على الأبواب والفصول، ويبين بالأعداد مواقعها من الكتاب، ويؤتى فى آخره بفهرس كبير، كثيرًا ما يكون كرسالة أو كتيب، تذكر فيه على ترتيب الحروف جميع مواد الكتاب، وأسماء الأشخاص الذين عرض ذكرهم لأمر، مع إتباع كل عَلَم أو مادة بأعداد تدل على جميع مواقعه فى الكتاب.

نحن لا نلوم الفيروزابادى على القاموس، ولا المبرد على الكامل، بل نشكر لهما عملهما الجليل، ونلوم أنفسنا لأنهم وضعوا أساسًا فلم نقم عليه بناء، بل شيدوا قصورًا فلم نمهد إليها السبل، والأشياء لا تدرك كما لها من أول نشأتها.

الزارع الذى لا يرعى الانتظام، ويدع أعماله حتى تتصرم أوقاتها، يستكثر من شراء الماشية، ويلتمس معونة الزراع، وتضطرب أموره، وتستبق إليه ألوان الخسران.

التاجر الذى لا يحصل على الانتظام، يعمل كثيرًا، ويربح قليلاً. فالعطار بالمعنى الذى نعرف، إذا لم يراع الانتظام فى رص بضاعته، يشتغل طويلاً بالبحث عن المُصطكى والقرنفل، حتى ينفض عنه المشترى ويهرب إلى عطار آخر. ألا تبصر كيف يرتب أكثر البدالين بضاعته؟ بل ألا تبصر كيف

يحسن الصيدلانى ترتيب عقاقيره فى صيدلته، حتى إذا وقفت هناك أخذ عينك انتظام، إن يدك تكاد تقع عليه؟

وأما انتظام الأمة، ونعنى به ترتيب أمورها العامة ترتيبًا صحيحًا معتمدًا على العلم، فأس راحتها وفلاحها. فلولا انتظام فى جيشها، لرأيته خاشعًا متصدعًا لا يدفع عدوًا ولا يلى حراسة. ألم تر أن الجمهور يسميه نظامًا بضم النون يعنى نظامًا بكسرها، كما يقول كُرامًا يعنى كِراما وحُصانًا يعنى حِصانًا؟ إنهم ليسمونه أيضًا لظامًا باللام أول الكلمة وهى نظام بالنون غيرت إلى اللام، لأن صوتيهما متقاربان. وكذلكم يحصل التصحيف فى جميع اللغات بين الأصوات المتقاربة كالتاء والدال، والسين والزاى والصاد، وكالباء والفاء والثاء. ألا ترى لفظ (صراط) فى العربية فإنه يستقيم نطقه بالسين والزاى كما يستقيم نطقه بالصاد. قال فى القاموس: الرهدل (يعنى باللام آخر الكلمة) كجعفر: الضعيف، والأحمق، وكجعفر وقُنفُذ وزبرج، طائر، لغات فى الرهدن (يعنى بالنون بدل اللام).

ولولا انتظام فى ريها لما أخصبت أراضيها وجادت بالثمرات. نظر إلى الأراضى المصرية، لما لقيت نظامًا صحيحًا كيف أخصبت! ولولا انتظام بريدها وطرقها الحديدية، لساءت الصلات، واضطربت الأحوال، وبطلت الأعمال. ولولا انتظام مدنها لبلغ من السكان الجهد، ونال منهم العَنت. والحاصل أنه لولا انتظام فى إدارة الأمة، أساسه إصابة النظر، وبسطة العلم، لم تكن الأمة شيئًا.

إن فى النظام قيام هذا الكون وبقاءه، ولو زايلت هذه الكواكب مواضعها، أو انحرفت عن أفلاكها، لكان الله قد تأذن بانتهاء العالم.

وبقى أن نقول إجـمالاً: إن الراحة والاقـتصاد، والإبـقاء على الزمن، والخروج من الكـسل، وفعل الواجب، كل هذه أمـور مرتبطة بالنظام، كـما ارتبط به فلاح الأسرة والأمة. ولكنه لما كـان النظام أعلق بالأعمال، انفرجت مسـافة الخلف بيننا وبينه. فنحن وإن بسطنا ألسنتنا بالقـول، نقبض أيدينا عن العمل، ونحن وإن قلنا كثيراً، نعمل قليلاً.

وفى كل شىء لنا آية تدل على بعدنا من النظام

إن الجمهـور الذى لا يوفقه عند النظام فى حفـلاته ومواكبه غـير عبث رجال الشرطة به، لا يرعى النظام.

***

obeikandl.com

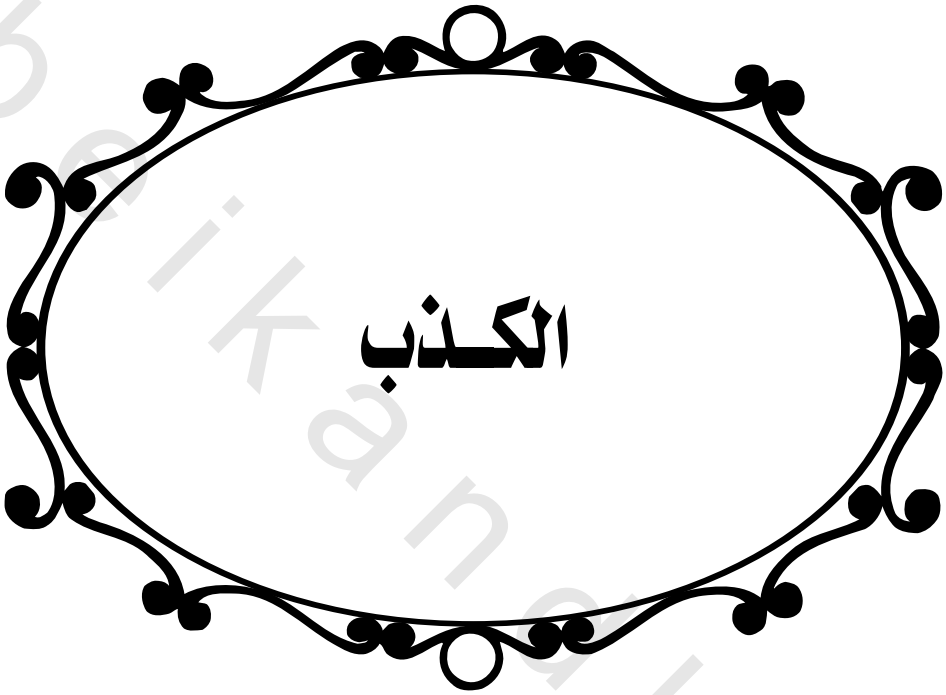

obeikanal.com

الكذب

بينا فيما سبق، أن الصدق دين للناس بعضهم على بعض، مع التنبيه إلى وجه ذلك؛ فضده، وهو الكذب، التواء عن هذا الواجب، وسقوط فى رذيلة من أكبر الرذائل كما سيبين.

الخرافات والأباطيل التى وجدت فى الأمم، لى عكس قسطها من العرفان، أبطلت فى نفوس أفرادها شيئًا من الاستعداد، وازدرعت فيها بعض الرذائل. فالذى نشأ فى أمة صوّر خيالها العفاريت فى صور منكرة مفزعة، ونَحلَها كثيرًا من الألقاب والأسماء والمستهجنة فى أقاصيص مفعمة بالشرور التى استطالت بها على الناس، وكذلك صور الغيلان فى نحو هذه الصور، وأضاف إليها الأسنان الحادة، والأنياب البارزة القواطع، والأظافر الطويلة، والشعور الكثيفة، فى حكايات تمثل من أنواع التعدى على الناس والفتك بهم والصبيان منهم خصوصًا، ما تمثل - الذى نشأ فى أمة كهذه، خليق بأن يبدل من بعد أمنه خوفًا، ويزول منه سلامة فطرته، ويستولى عليه الضعف، والضعف رذيلة يجد المرء عذابها فى كل حال من أحوال الحياة؛ وعلى هذا القياس. إن كان بعض المخترعين لهذه الأباطيل ممن ضعفت مفكرتهم وقوى خيالهم لأمر، كما يحدث عند بعض المرضى، فالبعض الآخر بلا شك من الذين يفترون الكذب. إن تخلص جماعة من الذين نشئوا يسمعون هذه الأباطيل، من تصديقها، بضوء يصل إلى قلوبهم من العرفان فيما بعد، فنحن على بينة بأن سائرهم يبقى له مرض فى نفسه حتى يموت. على أننا لا نجزم بأن من زالت عن نفسه هذه الظلمات، استرجعت نفسه تمام الاستعداد الأول، بل أولى لنا أن نجزم بعدم رجوعه.

إن الكذب دخل فى الديانات، وأبرزها للناس فى صور ناقصة. فالدين الإسلامى خالطه كثير من الأحاديث الموضوعة، والظنون الفاسدة، التى اشتغلت العلماء فى كثير من الأزمان بتمييزها، وتلقفها الكثير على أنها من الدين. ونتج من تلك الظنون، وهذه الأحاديث، فساد كبير؛ لأنها شوهت وجه الرشاد، وجعلت الحقيقة بمكان قصى، وصدت كثيراً عن قبول الحق، بعد أن اختلط بالباطل، وجرت العامة إلى فعل ما لا يحل، تعويلاً على حديث ضعيف، يقضى بكذا وكذا من أنواع الرضوان والمغفرة، جزاء على عمل حقير لا قيمة له. وفى مثل نزهة المجالس كثير من هذه.

كذلك علم التاريخ، دخله كثير من الأكاذيب، واشتغلت العلماء بالرد عليها كابن خلدون فى مقدمته، والتاريخ على هذا الوجه مفسد للأنظار، ومبعد للشخص عن الحق؛ والذين تراهم قد جمعوا فى معارفهم بين الحق والباطل، وقرنوا الغث بالسمين، أولى الناس بتصديق ما يلقى عليهم، وأبعدهم من التماس الحقيقة. وهكذا فى سائر العلوم النقلية، ترى للباطل مجالاً واسعًا، تفرغ كثير من العلماء لدحضه وتفنيده، وبعضهم بذل الجهد فى البحث عما هو بالحق أشبه، ودوَّنه فى كتب مخصوصة كالبخارى وغيره. ولم يكن لهؤلاء من الأعمال إلا تخليص العالم من بعض شرور تلك الرذيلة، وتقليل ما ينصب من المصائب منها على رءوس الناس.

الكذب رذيلة استطالت على المعاملات والنظام، وحرَف العالم الدائمة، حتى كادت تفسدها، وتصدم الكون فى رأسه صدمة يتقهقر بها إلى الوراء. فالعالم والتاجر، والزارع، والصانع، كل أولئك أضر بهم الكذب فى عملهم، وضيّق عليهم السبل حتى أُقفلت فى وجوه البعض؛ وتوجيهه لا يخفى على قياس ما قيل فى الصدق.

وقد ذكرنا لك، أن كـذب التاجر قضى بأن تنفق زمـنًا فى شراء عَرَض حقـير. ونزيدك، أن الناس الذين لا عمـل لهم إلا قضاء الأشـغال، من بيع وشراء، وإجارة ونحوها من المعاملات التى أفسدها الكذب، ربما أضاعوا أكثر من ثلاثة أرباع عـمرهم فى الاقـتـراب من الحق، فيـما يبـاشرون، ومـا هم بمقتربين منه. إذا نظرنا إلى الخصومات التى تقع بين الناس، ووراء الخصومات ما وراءها من الدعاوة والبغضاء وما يتبعهـما من المفاسد - رأينا كثيراً منها قد أوقع فيه الكذب. فكم من رجل ينازع فى عين يدعيها لنفسه، وهو يعلم أنها ليست له، وآخـر كان قد استـأجر منزلاًوعد بإخـلائه فى يوم كذا، ولم يف بوعده، فقامت بين الاثنين خصومة ساقهما إليها الكذب.

الكذب أدى إلى ذهاب ثقـة الناس بعضهم ببـعض، فصـارت رابطتهم واهنة، وتعسـر على ذى الحاجة أن يـقترض مـثلاً ما يدفع به تلك الحـاجة، خصوصًا إذا كـان معروفًا به، فإن الثقة به تذهب، وتضـيق عليه المعاملات، حتى لا يجـد مسلكًا. وأنت ترى من نفـسك سهولة الإعطـاء لمن يعد ويفى بخلاف الكاذب. قد يكذب الرجل حـتى لا يُصدَّق، وإن صدق ربما وقع من أجل ذلك فى مهلكة، والشواهد كثيرة.

وينبغى أن يُتـعهد الأحـداث، وتُستأصل من نفـوسهم هذه الرذيلة، بما يناسب حالتهم من العقوبة اللائقة:

(١) فإذا كان الكذب واقعًا من الصبى لكثرة كلامه، أُلزم الصمت.

(٢) وإذا كان عن خوف، نشـأ عن القسوة فى معامـلته، عومل بالرفق حتى يثوب إليه ما فقد من القسوة.

(٣) وإن كان كذبه صادرًا من الفخر، عُود التواضع.

(٤) ومن نشأ كذبه من طمع فيه، وطلب به الحصول على شيء، حيل بينه وبين ما يشتهى.

(٥) ومتى بان لك أن سيئ النية يريد أن يضر غيره، عوقب علنًا بما كان يعاقب بـه ذلك الغير على فـرض صحـة دعواه، مع إعـلان شرف المكذوب عليه.

ويجب مع هذا أن يكون المعلم قدوة حسنة:

(٦) فلا يكذب فى شيء ما.

(٧) وأن يطابق قوله عمله.

(٨) وألا يتضارب قوله.

(٩) وأن يجعل فى مادة الدرس ما ينفر من الكذب.

(١٠) وأن يبين فى كل فرصة أن الكذب له منه وقع سيئ.

(١١) ويبين لهم أيضًا ثقـته بهم فى أعمـالهم، ولا يظهر شكه إلا عند اتهام شديد على وجه لطيف، وإلا أثر فيـهم السؤال على غير هذا الوجه أثرًا سيئًا.

(١٢) وينبغى أن يسامح من يجيب بصراحة، بخلاف الكاذب فيعاقبه.

***

obeikandl.com

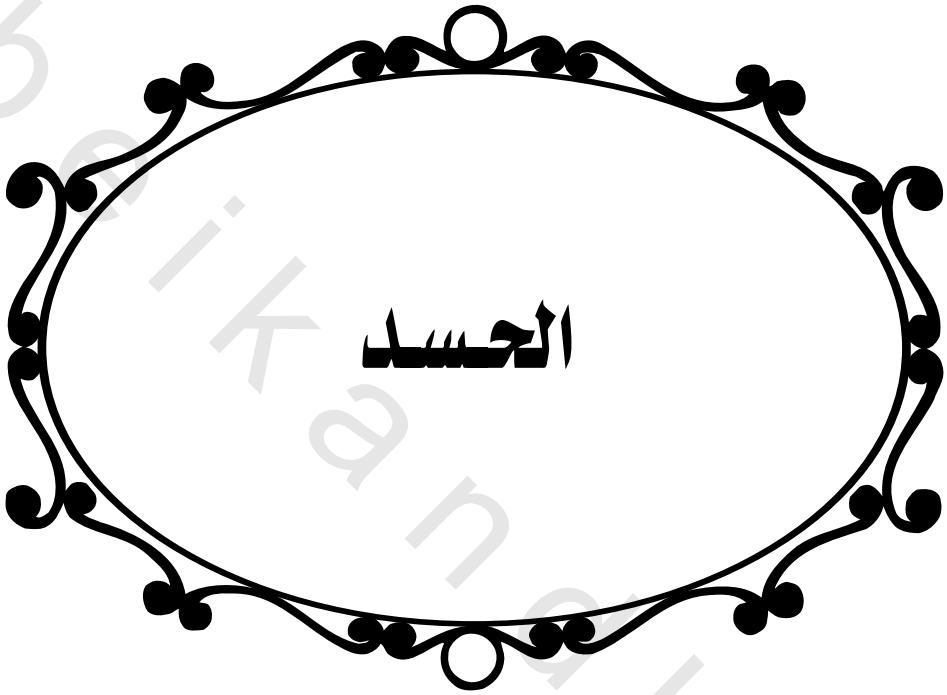

obeikanal.com

الحسد

ثلاثة ألفاظ من قبيل الحسد، يكثر دورانها، ويشتبه فيها بعض الناس، لورود بعضها مستعملاً مكان الآخر، لغرض يليق بذلك الاستعمال. وهى: المنافسة، والغبطة، والحسد.

فالمنافسة: تمنى ما للغير مع السعى فى التحصيل. وهى سبب قوى من أسباب تقدم الأشخاص والأمم. ولهذا حسن أن يحرك إلى التسابق فى طلب الخيرات بالوسائل المختلفة، فهى من أجل ذلك ممدوحة. قال تعالى: «وفى ذلك فليتنافس المتنافسون».

والغبطة: تمنى ما للغير، وهى ممدوحة أيضًا، لأنها قد تنتهى بالمنافسة.

والحسد: كراهة نعمة الغير وحب زوالها. وهو ضرب من البخل شديد، لأن بخيل المال يضن بما فى يده؛ وأما الحسود فإنه يضن بنعم الله تعالى، ويألم من وصولها إلى الغير. وهو مع هذا سخط على نظامه تعالى من حيث تفريقه النعم فى خلقه. قال ﷺ: إن لنعم الله أعداء. فقيل: ومن هم؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما أتاهم من فضله. ومن ثم كان الذين اختصهم الله بحظ وافر، ونبغوا فى أممهم، غرضًا لحسد الحاسدين، واتقاد نيرانه فى قلوبهم، فتعرضهم لهم بالمثاب خفضًا لدرجتهم، وحطًا من كرامتهم، يصيبونهم فيما يعز على أممهم؛ فإن كانت الأمة مكلفة بأمور الدين سلبوهم فيها، وإن كانت مولعة بغير ذلك، عابوهم فيه. مع أن تلك المثالب يكون من شأنها تنبيه كثير إلى فضائلهم، كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويت، أتاح لها لسان حسود

ولا تكون أمة راضية كل الرضاء عمن نبغ فيها، إلا بعد انقراض الحاسدين، بانقراض جيلهم، وقيام جيل آخر مقامه.

أما دواعى الحسد فكثيرة، منها: البغض، فإن الشخص متى أبغض آخر لسبب ما كان من شأنه أن يجد فى نفسه انقباضًا من نعمة تصير إليه. وهذا النوع قد يزول بسهولة، لأنه من توابع البغض، ثبوتًا وزوالاً، ولا يكون عامًا. ومنها: التزاحم على غرض واحد، كالذى يكون بين طائفة النجارين أو الحدادين مثلاً، فهؤلاء كما تكثر فيهم المنافسة، يكثر بينهم الحسد أيضًا، لأنهم يرتزقون من طريق واحد، وما يحصل لأحدهم من الكسب يخسره الآخر معنى.

أما الحداد والنجار، يعنى اثنين من طائفتين، فليس بينهما تزاحم بهذا المعنى، ولذلك لا يتحاسدون. وهذا الأمر بعينه، يصلح علة فى أن سكان القرى يكثر فيهم الحسد، عن سكان المدن، لأن الأولين لهم عمل واحد وهو الزراعة، فهم فى حرفة واحدة، يوندر بينهم الصناع. وهم مع ذلك، فى قريتهم الضيقة، بما لهم من الروابط الكثيرة، بمنزلة أسرة تقيم فى بيت، بخلاف سكن المدينة، فإن بينهم الصنائع المتوعة، والأعمال المختلفة، مع قلة العلائق فيما بينهم، واتساع مدينتهم.

ومنها: أن تكون النفس شحيحة بالفضائل، بخيلة بالنعم، لا يطيب الشخص نفسًا بما رأى فيه غيره من النعمة، وإن كان هو فى نعمة فوقها، يسخط على قضاء الحكيم عز وجل. وهذا النوع شر الأنواع، لأنه خبث فى النفس، وانطواء على الشر لذوى النعم، بلا سبب.

وقد قلنا فى الشفقة إنها عامل من عوامل الألفة والاجتماع، وهنا نقول: الحسد بخلاف ذلك، إنه سبب من أسباب النفور والتفرق.

الحسد إن تمكن من قلب امرئ أفسد عليه أخلاقه ويسّر له أوصافًا قبيحة، كالكذب والغيبة والنميمة.

الحسد إن ثبت فى نفس امرئ ساقه إلى فعل ما لا يحل من القبائح والجرائم؛ فهو الذى حمل إخوة يوسف على أن يأتمروا به، ويتشاوروا فى قتله، كما جاء فى التنزيل. وهو الذى أغرى قابيل، على قتل أخيه؛ ودمه، كما روى، أول دم سُفك على الأرض. قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾**﴾ [سورة المائدة].

وهو الذى دفع المشركين إلى الاستطالة على رسول الله ﷺ بالأذى، ووقوفهم فى طريق الإرشاد.

وكذلك فرق بين كثير من الأُسر، وأوقع فيها الشقاق، ووهن الأُسر وهن الأمة. يخص الأب، مثلاً، أحد الأخوة بجزء من مقتنياته ويترك الآخرين، فينبت الحسد فى قلوبهم، وتكثر الشرور فيما بينهم. فإن الحسد متى دب فى جمعية كيفما كانت، أفسد قلوبها، وأذهب ثمرتها، وصيّر بعضها وبالاً على بعض، وحوادثه قلما يخلو منها كتاب أو رواية.

والحسود شرير شره راجع إليه، وعذابه دائم، وألمه مقيم، بما يجد فيه

الغـير من النعـمة. ولذلك قـيل «عـقوبة الحـاسد من نفـسه». وقـال بعض الحكماء: «الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحاسد ما يلقى».

وعلى المربى ألا يدع طريقًا للعـداوة بين تلاميذه، كالمـاراة، وأن يعمل لجعلهم إخوانًا متحابين، حتى لا يتطرق إليهم الحسد، ولا يخص أحدهم بمثل التوجه إليه فوق الحاجة، لأن ذلك قد يفسد قلوب إخوانه.

***

obeikandl.com

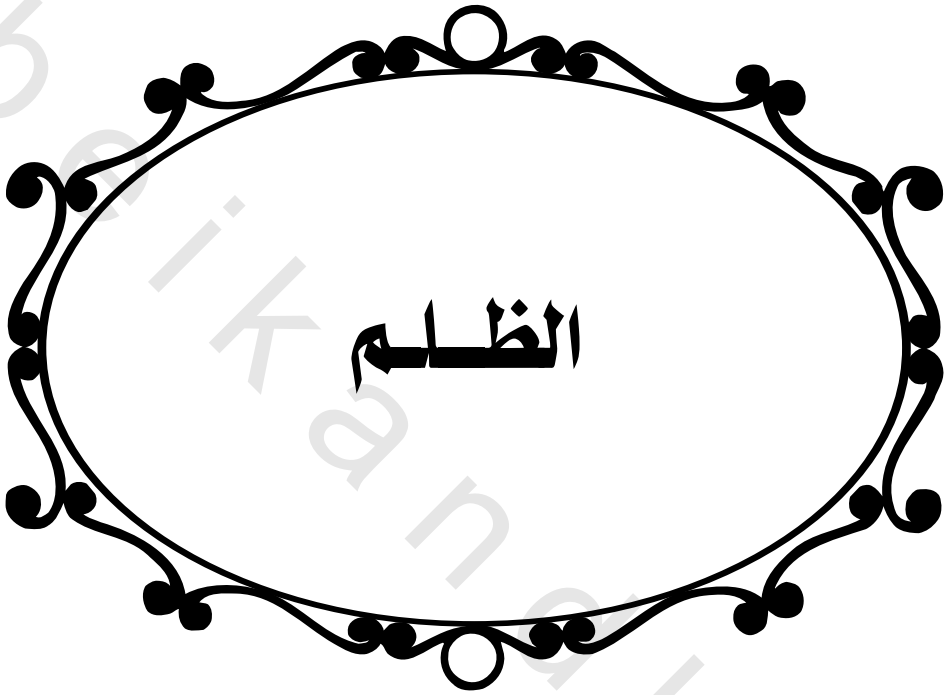

obeikanal.com

الظلم

عرف الكثير الظلم بأنه وضع الشيء فى غير موضعه، وهو تعريف خفى، والأحسن أن يعرف بأنه: خروج الشخص فى صرفه عما حُد له. فى الناس من طبعه العدوان، ومنهم من دأبه الجشع، وآخرون عادتهم الغضب، وغير ذلك من الرذائل التى جاءت من عدم اعتدال القوة المودعة فيهم. فلا جرم كانت هذه الرذائل مع تزاحمهم على المطالب سببًا فى مجاوزتهم الحد، واستطالة بعضهم على بعض، بالشتم والضرب، والسلب والنصب، والقتل وغير ذلك من الأمور التى يأباها العقل والقانون.

وأوّل من يصيب الظالم بظلمه، نفسه التى بين جنبيه، فإن الشرور التى تخالج قلبه، وتخامر نفسه، تضره قبل أن تصير شروراً بالفعل، تصل إلى الغير، ويجد ألمها. على أن بعض الظلم يكون قاصراً على الظالم، لا يصل إلى غيره منه ضرر. والظلم أمر قبيح، سيء العاقبة، كما ستسمعه، وأنواعه كثيرة.

فمنها ظلم الحاكم للأمة، وأدناه ألا يقلع عما فيه من الرذائل، فإن كل رذيلة فيه هى عند النظر، ضرب من الظلم لرعيته، لأن تلك الرذيلة تنتقل إلى كثير منهم. فالحاكم إذا أحب التجسس أخذه من حوله بحكم التقليد، ولكل من هؤلاء حاشية وناس محدقون به، فتنتقل تلك الرذيلة إليهم، وهكذا. كنت أعرف فى بعض الرؤساء رذائل، ولم ألبث حتى رأيت بعض مرءوسيهم وقد ظهرت فيهم هذه الرذائل بعينها، وكأنى الآن أنظر إليهم.

ومنه أن يقعد عن إدارة شئون الأمة، ويجعل مصالحها وراء ظهره، لا

يحفل بهـا، ولا يُعنى إلا بتقـاضى أجره، وحمل الرعـية على الاعـتراف له بالسيادة، وإبداء شعائر لعبودية، ويكون عبئًا ثقيلاً على كاهلها.

ومنه، وهو أشد، أن يسـتبد برأيه، ويقـضى بهواه. وقد يمد عـينيه مع ذلك إلى أمـوال الرعية، وحـينئذ تذهـب حرمة النفـس والمال، ويتضـعضع الأمن، ويخـشى الناس على أمـوالهم من إظهـارها فى التـجـارة ونحـوها، وتنقبض الأيدى عن الأعمال، فتقل الثروة، وتضيق دائرة العرفان. لأن الأمة تكون حينئذ فى تقـهقر، والحكومة الظالمة لا تنصر الـعلم، لأنه يناقض حالها الذى هى فيه. وكذلك الشأن فى أخلاقهـا، فإنها تصير إلى الضعف والذلة، وينتشر فيها النفاق والكذب، وتبطل فيها الشجاعة والحمية، وتظهر فيها جميع الرذائل التى تتـولد من الضعف، وإذا سـلمت من الدمار زمنًا، فـإنها تبـقى كالمريض فى حال النزع، ثم تضعف عن القيام بنفسها، وتصير إلى غيرها.

وهذه مراكش، لظلم حكومـتها ينطبق أمرها على ما قـلنا، وهى قريبة من السقوط.

الظلم فى الأمم يثير الضغائن، ويزرع الأحقاد، فى نفوس الرعية، على الحكومة حتى تكون الأمة فى نـزوع إلى الثورة، وليس يدرى ما وراء الثورات من سقوط الحكومات، وانقلاب الممالك، إلا الله تعالى. فالحروب الداخلية، أشد وقعًا من الحروب الخارجية. وهذه أمة الروس، لما لقيت من حكومتها من الاستبـداد والمصادرة فى الحرية، أوغر ذلك صدورها، وتحـفزت إلى الثورة. ولما آنست من حكومـتهـا الضعف، ثارت إلى الفتن والفـتك بالناس وتعطيل الأعمال، وتلك من ثمرات الظلم.

ومنها الظلم الـذى يقع فى الأُسر من عُمـدائها، والأسر أجـزاء تتركب

منها الأمة فإذا وقع فيهـا خلل أدى ذلك إلى فساد الأمة من وجه. ونذكر لك شيئًا تقـيس عليه: فمن ذلك أن يسىء الرجل إلى زوجته، وهو كـثير، ينظر إليهـا نظره إلى متاعـه، ويعاملها بما يـقتضى ذلك، فـإن هذا يؤدى إلى ذُلها وهوانها، وتولد الرذائل فى نفسهـا، وهى أم ولده، فلا بد أن تبعث فى نفسه من تلك الضعفة التى صارت إليهـا، ويكون عدوانه على زوجته عدوانًا أيضًا على أولاده وأمـتـه. إن الذين يتكبـرون فى أجـواف بيـوتهـم على أهلهم، ويشمخـون بأنوفهم على أسرهم، إنما يلدون عبيـدًا لغيرهم من الناس. ومن الظلم أن يدع تربية أبنائه، تربية يقتضيها الزمان؛ فإن التزاحم على أمور الحياة قد اشتد، وحاجة الإنسان قد تضاعفت، وطبيعة العمران قد تغيرت. فمن لا يجعل لبنيه عدة من تعليمهم وتربيتهم فـقد ظلمهم، وكان كما لو دفعهم إلى الوغى بغير سلاح. وكثير من الأُسر أدرك الحاجة إلى تربية البنين، ولكنهم لم يدركوها بعد إلى تربية البنات، وهن كذلك فى حـاجة إليها؛ فإن تدبير المنزل والسعـادة من داخله، وتربية الأولاد، واقـتدارهن على العـمل والكسب عند الحاجة، كل ذلك داع إلى العناية بتعليمـهن وتربيتهن. غالى الرجال فى ظلم بناتهم، حتى جعلوا درجتهن وراء مـا يملكون من الحيوان، وهم لا يشعرون، تُولد عند الرجل المهـرة أو الجحشـة، فمـتى أدركت سن الروض دفعـها إلى الرائض، وإن قـصر ندم؛ وتولد له البـنت، فإذا جـاء عليهـا دور التربيـة أو جاوزته لم يدر فى خلده شىء من أمر تربيتهـا. فما أظلم الإنسان وأبعده عن الحق، إذا اعتـاد الباطل؟! ومن الظلم مـا أسلفنا القول عليـه، من أن الرجل يضم إلي بنيـه الكبـار على الوجـه الذى فى القـرى، ولا يكل إلى كل منهم عملا خـاصًا يحضه على الكسب ويعـرفه طرق المعاملات، ويبـعث فيه روح الاستقلال. فإذا مات عجزوا عن تدبير أمورهم، ووقعوا فى الخسران.

ومنها ظلم الحيوان، مع كونه نعمة من الله تعالى على الإنسان، قال تعالى: «والأنعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع، ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس؛ إن ربكم لرءوس رحيم». فلا يحل مقابلة هذه النعم بالكفران، ولا هذه الرحمة باظلم والقسوة، وإسخاطه تعالى فيما أفاض من المنة. نعم أحلت الشريعة ذبح الحيوان وأكله، فمجاوزة ذلك إلى تعذيبه بلا جدوى، أمر مخالف للشرع والعقل معًا. فهراش الديوك تتقاتل حتى تسيل دماؤها، والكباش تتناطح وتذوق الألم وقد تتكسر قرونها، وتحميل الحيوانات فوق طاقتها حتى يبلغ منها الجهد غايته، وضربها مع ذلك بالسياط، كل ذلك ظلم. وظن أمثال هؤلاء الذين يصنعون بالحيوان مثل ذلك، يعاملون الإنسان بمثل هذه المعاملة، لو وجدوا إليها سبيلا. جاوز الناس الحد فى أمور الصيد، والعدوان على الحيوان، وإن لم يطعموا منه. ومن هؤلاء جماعة من الأغنياء، جعلوا لهم قطعًا من الأرض يأوى إليها، فإذا مالوا للهو بقتله، ركبوا ومعهم آلاته من كل نوع؛ حتى إذا جاءوا إليه وجدوا لهم فى الفتك به لهوًا ولذة.

ويجب على الأستاذ أن يربى تلاميذه على احترام الشرع والقانون، والتمسك بهما وينفرهم من مخالفتهما، والخروج عنهما، حتى يكون ذلك داعيًا إلى بعدهم من الظلم.

***

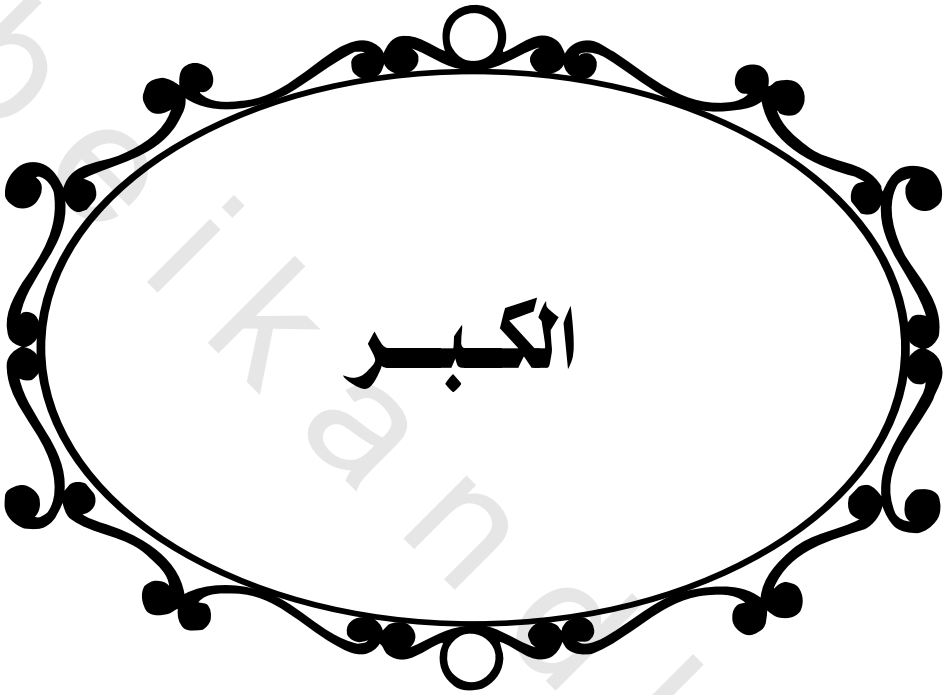

obeikanal.com

الكبر

حال فى النفس، يدعو إلى مجاوزة الحد فى إعظام النفس وإحقار الغير. والتكبر اسم يقع على العلامات المختلفة التى تنبئ عن تلك الحال، على قياس ما سبق فى السخاء والجود. وتلك العلامات مما لا يغيب عن الناظر، إلا أننى أُلم على شىء منها. فمنها النظر الشزر، وتقليل الكلام. قال شاعر الحماسة:

وما تزدهينا الكبرياء عليهم إذا كلمونا أن نكلمهم نزرًا

ومثلهما الترفع عن الحق استخفافًا بمن جاء به، وهو رذيلة كبيرة من رذائل الكبر؛ حتى لقد عرفه بعضهم، بأنه رد الحق على قائله واحتقار الناس. كذلك عدم رد السلام، والتوقف عنه حتى يبدأ به الآخر، ونحوهما.

أما هذا الخلق فيحصل فى الشخص لنظره إلى نفسه بالإضافة إلى فضيلة فيه، وإلى غيره من جهة أنه عار من تلك الفضيلة أو فيه رذيلة. ويضرب صفحًا عن نقائصه وكمالات غيره، فتعظم عليه نفسه، ويهون عليه الآخر، وتأخذه هزة من الكبر. وقد ينحل الكبر فيُرى أنه سرى فى الشخص من أنه يرى حاله التى هو فيها جماع الفضائل، وأن ما عداها ليس بشىء، فيجاوز الحد فى تعظيم نفسه وتحقير غيره. كما قد يقع من بعض الذين يعرفون شيئًا من مسائل العلوم، فإنهم يحقرون عامة الناس، وإن أوتوا من غرائزهم وأدبهم الفطرى، ما يجعل لهم المحل الأرفع. وهذا راجع إلى ضيق دائرة النظر؛ ومثل هذا النوع سريع الزوال، متى استعت دائرة العرفان وأدرك الشخص حقيقة الفضيلة.

أما أسباب التكبر فمنها: علم لا تقصد به الفضيلة، كما هو واقع، فإنه متى صادف نفسًا متهيئة للكبر بعثـه فيها، وكان مثله كمثل الغيث ينزل صافيًا من السماء، فتتشربه الأشجـار المرة فتزداد به مرارة. ذلك بأن يظن صاحبه أن ما حصله هو من العلم المعنى بالتقريظ، وهذا الظن خطأ.

ومنها: النسب، ويحصل به الكبر غالبًـا ممن لا يشعرون لأنفسهم بشيء من الفضائل؛ وهو أدل عـلى جهلهم، لأن النسب إنما صح اعتبـاره فضيلة، لأن الفرع يضـير غالبًا إلى مـا كان لأصله من المحامـد، ويحمله النسب على المطالب الرفيعة. فإذا لم يكن ثم واحـد من هذين، بطل معناه. نعم يصير له معنى آخر، هو الاحتجاج به على الفرع، فلومه، كما قيل:

لئن فخرت بآباء ذوى نسب لقد صدقت، ولكن بئس ما ولدوا!

ومنها: المال، وما يـستدعى من بسط الرزق ورغد العـيش، والانغماس فى الترف ونحوها؛ وهى أمور ليـست من الفضائل فى شيء. والمال فى ذاته ليس فضيلة، وربما لا يدل علـى فضل سابق، كالجد، كمـا إذا كان موروثًا، ولا لاحق، كالسخـاء، كما إذا كان الثرى بخيلاً. ويا لـيت شعرى، إذا كان العلم، والنسب، والثراء، فضائل على الإطلاق، فهل من مقتضى الفضيلة أن يجاوز صاحـبها الحد فى إعظام نفسـه، وإحقار غيره؟ نـعم إذا اقترنت برذيلة الجهل!

ومنها: القوة والجاه وغيرهما.

أما تأثير الكبر فى النفس، فاستتباعه كثيرًا من الرذائل، فضلاً عن كونه يقضى بانسلاخ صاحبه من التواضع الذى هو من كبريات الفضائل. فمن هذا أنه يغرى بالظلم، لأن المتكبر لا يحـفل بحقوق غيره فيجـور عليه؛ والحقد،

لأنه ربما لا يجد من بعض الناس تسليمًا بحاله، ولا يد له عليهم، فيدب فى نفسه؛ والحسد، لأنه من فروعه كما سبق؛ والغضب، لأنه يرى كثيرًا من أعمال غيره دون المنزلة التى حسبها لنفسه، وذلك داع إلى أن يغضب؛ والإزراء بالناس، والغيبة؛ ويصده عن الطاعة احتقارًا لمن تجب له، وقبول النصيحة، ومعرفة الحق، والانقياد له، والرجوع إليه، كما يجىء. وإذا أعملت فكرك عثرت على رذائل وراء هذه تتبع الكبر.

وأما تأثيره فى الخارج، فإنى مورد لك بعض شواهد، نموذجًا تقيس عليه. فهو الذى حمل إبليس على المعصية فطرد من رحمة الله، وحاق به سوء العذاب، كما ذكر فى مواضع من التزيل العزيز، منها قوله تعالى فى صورة «ص»:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

الكبر هو الذى حمل جبلة بن الأيهم ومن معه، على الارتداد، ومفارقة جماعة المسلمين، واختيار النار. فقد كانت جبلة يطوف بالبيت، إذ وطىء إزاره رجل من بنى فزارة، فانحل، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى. فاستعدى عليه عُمر رضوان الله عليه. فبعث إلى جبلة، فأتاه! فقال: ما هذا؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! إنه تعمد حل إزارى، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف. فقال له عمر: قد أقررت! فإما أن رضى الرجل، وإما أن

أقيده منك. فلما رأى جبلة الصدق من عمر، قال: أنا ناظر فى هذا، ليلتى هذه. حتى إذا نام الناس وهدءوا، فحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام، وارتحل فى خمسمائة رجل من قومه، فدخل إلى هرقل، فتنصر هو وقومه. وهو الذى يقول بعد ذلك، وقد سُقط فى يده:

تنصرف الأشراف من عار لطمة وما كان فيها،لو صبرت لها،ضرر!
تكنفنى فيها لجاج ونخوة وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمى لم تلدنى! وليتنى رجعت إلى القول الذى قال لى عمر!
ويا ليتنى أرعى المخاض بدمنة وكنت أسيرًا فى ربيعة أو مضر!
ويا ليت بالشام أدنى معيشة أجالس قومى ذاهب السمع والبصر!

والقصة مبسوطة فى أول الجزء الرابع عشر من كتاب الأغانى.

الكبر يصد عن فهم الحق، استخفافًا بقائله، وانصرافًا عنه. قال تعالى: «سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق». وقال تعالى: «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار» فلا ينفذ فيه الحق، ولا يعمل فيه الرشاد. ولذلك كان أتباع الرسل، وخصوصًا فى أول أمرهم، الضعفاء من الناس، لأن أقوياءهم وعظماءهم، لا يخلون غالبًا من كبر، يحول بينهم وبين الحق. يؤيد ذلك ما جاء فى حديث لهرقل مع أبى سفيان إذ يقول له: وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

قال القسطلانى فى شرح هذا: غالبًا، لأنهم أهل الاستكانة، بخلاف أهل الاستكبار، المصرين على الشقاق، بغيًا وحسدًا، كأبى جهل. ويؤيد

استشهاده على ذلك قوله تعالى: «قالوا: أنؤمن لك، واتبعك الأرذلون؟» المفسَّر بأنهم الضعفاء على الصحيح اهـ، والحديث جدير بالنظر وهو مفصل فى الجزء الأول من القسطلانى من ص ٧٣ وما يليها.

قد يوجد عدد وافر من الأمة يحملهم جهلهم على الكبر، ويصد فريقًا منهم عن مباشرة التجارة، وآخر عن الصناعة، وغيرهما من الأعمال التى هى منابع الثروة للأم، فيضربون عنها، ويقع كثير منهم فى الذل خوف الذل.

الكبر قعد بكثيرين من ذوى النسب عما تهيأ لهم من الأعمال حتى صاروا حملاً على غيرهم. فالأشراف مثلاً أخذتهم العزة بنسبهم الرفيع، حتى وقفوا عن مشاركة الناس فيما بين أيديهم من الأعمال، وصاروا إلى العجز، وانقسموا طوائف: فمنهم فريق يجول فى البلاد على أنهم مشايخ طرق، وآخرون أقاموا فى ديارهم، ينتظرون ما يأتيهم به الناس من الصدقات، ولسن حالهم يقول: تصدق على سيدك الذى تحل له الصدقة، وهكذا من الطبقات التى لا ثمرة لوجودها فى الجمعيات والأمم، سوى تكثير سوادها. فى ظنى أن كثيرًا من الحروب التى دارت رحاها صدر الإسلام فى سبيل المطالبة بالملك، كان من جملة الدواعى إليها تعاظم بعض الأشراف بنسبهم. وهذه حرب الروس، وما حرب الروس منكم ببعيدة، إنما أوقدوا نارها مع اليابان، عظمة منهم، وكبرًا واحتقارا لليابانيين، كما هو بين فى عباراتهم، كقول قيصرهم: لنؤدبن اليابان مائة مرة. وناهيك بما تجر الحروب من قتل الرجال، وذهاب المال، وقلة الأعمال، وصيرورة كثير من الأسر إلى الدمار لفقد عائليهم، ووراء ذلك من السقوط للأمة ما وراءه.

كبر الرؤساء يقتل كثيرًا من الفضائل فى نفس المرءوسين. فالرجل إذا

تكبر على زوجه وأولاده، ولم تكن رابطة الأسرة المحبـة والإخلاص، فاعتبر الزوجة قطعة من الأثاث، والأولاد خلقة له، ووضع نفسه فى جميع الأحوال موضع الآمر لا يرد أمره، والناهى لا يلطف فى نهيـه، وترفع عن مجالستهم ومحادثتهم، أمـات فيهم كثيراً من الفضائل على نحـو ما مر فى الظلم، فإن المتكبر ظالم.

كـذلك المعلم المتكبر، يصـير تـلميـذه إلى الذل؛ على أن طريقتـه فى التعليم لا تـكون مرضيـة، لأنه قد يحمله الكبـر على أن يضع نفسـه موضع العالم بكل شىء فيخلط ويخـرج إلى الهذيان، ويحقر كل رأى للطالب، وإن كان صائبًا؛ فلا يعده إعدادًا حقًا للنظر والاستقلال، وليس عليك إلا أن تنظر نظرة صحيحة فى الخارج حتى تفقه هذا وتجزم به.

وكذلك الحكومة، إذا كـانت متكبرة على الأمة لأمـر، ناظرة إليها نظرة احتـقار، ظلمـتهـا من بعض الأوجه، فـوضعت لهـا القوانين بمقدار هـوانها عليها، وحرمتها بعض حقوقها وجعلت منها مقابر لبعض الفضائل.

بوالجملة، فإن الرؤساء المتكبرين، على اختلافهم، يؤثرون فى الأخلاق تأثيراً سيـئًا، لأنهم مربون من وجه. فويلٌ ثم ويـل لمن يخرج من سيطرة أب متكبر، إلى معلم مـتكبر، ثم يقع فى قبضة رئيس متكبـر، وحكومة متكبرة؛ فإنه يذوق صنوف العذاب من نفسه!

وأما التواضع، فهو فضيلة يتبعـها كثير من الفضائل وليس فيه رذيلة من هذه الرذائل، وهو خلق نعم الخلق.

***

obeikandl.com

الأخلاق

التى تكون فى بعض الناس فضيلة وفى بعضهم رذيلة

قد يكون الخلق المحمود ذميـمًا بالنسبة إلى بعض الناس، وكذلك الخلق المذموم قد يكون حميدًا بالإضافة إلى بعضهم، وذلك باعتبار أثره. يظهر هذا فى أخلاق شتى، نورد لك بعضها لتـقيس عليه. فمن ذلك ما نقلناه فى باب الحياء، من أن الخجل يقبح فى الرجال، ويحـسن فى النساء. أما وجه قبحه، فلأن الرجل بمقتضى صـورته فى الجمعية، عليه واجبات كـثيرة خارج المنزل، والخجل يمثل بعض أعمـاله فى صور مستهـجنة، ويحول بينه وبين بعض هذه الواجبات، ويُصـيره إلى الذلة. وأما وجه حـسنه فى المرأة فلأنه يقبـضها عن الابتذال فى المخالطة، ويكون فيـها سياجًا على صيانتها، وهى فـضيلة خليقة بالعناية فيها. ومع هذا فإن واجباتها فى تدبير منزلها وتربية ولدها، وليس فى خجلها ما يصدها عن مباشرة هذين على وجه كامل.

إن صيرورة المرأة إلى القوة والجلادة، وإن كان كمالاً فى الرجل، نقص فى حقـها. ذلك لأن الائتلاف بينها وبين الرجل يكون حـينئذ ضعيـفًا والميل قليلاً، وربما نشأ عن ذلك ضعف الرآسـة فى الأسرة، وعدم الوئام. وقد قيل فى المثل: «لا يستـقيم الطحن بحـجرين صلبين». ومن الشـواهد على صدق هذا، أن المرأة إذا زاولت حرفـة كالتعليم زمنًا حـتى ظهر أثرها فى أخلاقـها، وأشبهت الرجل، قَلت الرغبة فيها، وانصرف الأكثرون إلى تأليف أسرهم من غيرها. وإن للحرف تأثيرًا فى الأخلاق وسحنة الوجه، ففكر فيه.

ومنها الميل إلى الزينة، بحـيث يجد الإنسان من نفسه سـائقًا إلى اتخاذ

الملابس الفاخرة، والحلى ونحوهما، وهو رذيلة فى الرجل، وفضيلة فى المرأة، على وزان ما سبق. وإنما كان رذيلة فيه، لأنه مناف للاقتصاد؛ وقد يخرجه من الجلادة التى تنبغى له، ويخمد فيه جذوة النشاط، ويغريه بالكسل.

أما المرأة فتلك الجلادة غير مطلوبة منها. نعم لم يراع لاقتصاد فى زينتها، ولكن هناك أمر آخر أجدر منه بالمراعاة؛ ذلك أن الزينة وصف يدعو إلى تمام الألفة بين الزوجين، وقيام الأسرة على نوع من المحبة أكمل، ولهذا أحَلت لها الشريعة المطهرة لبس الحرير، واتخاذ الحلى من الذهب والفضة. والأصل فى هذا ما جاء فى حديث رواه عدة من الصحابة، منهم على، رضى الله عنهم أجمعين، أن النبى ﷺ، خرج وبإحدى يديه حرير، وبالأخرى ذهب، وقال: «هذان محرمان على ذكور أمتى، حلال لإناثهم، وفى رواية حِلٌ لإناثهم».

ومنها الزهد، وهو احتقار الأموال وأعراض الدنيا، وهو ممدوح من الخطباء والوعاظ، وغيرهم من رجال الدين، ومذموم من الملوك والأمراء. وتوجيه ذلك أن كثيراً من الناس لم يطلبوا الدنيا برفق، بل تكالبوا عليها، وزَلَّت بهم الأقدام، فهووا فى بحرها، وأوشكوا أن يذهب بهم تياره، ونتج من هذا كثيرٌ من الشرور والآثام. من ثم كانوا محتاجين إلى تنبيههم على ما هم فيه، وبيان المضار التى جاءت من إيغالهم فيها، يريدونه عَرضها، وذلك عمل الوعاظ والخطباء، وغيرهم من رجال الدين. ومن البين أنه يجب أن يكون من أخص أوصاف هؤلاء، القناعة والزهد، لأنهما ملاك الفضائل التى يدعون إليها وليس الغرض أن يجعلوا كل الناس زهاداً ويوقفوا العمران،

ولكن الغـرض أنهم يقتـدرون حينئـذ أن يرجعـوا الناس إلى الاعتـدال شيـئًا ويقللوا الشرور.

أما الملوك ومن فى مـعناهم، فإن فى زهدهم انفضاض الحـاشية عنهم، وتفرق الأعـوان من حولهـم، وذهاب شارة الملك، وانتـقاض أبهـته، وزوال رهبته من نفوس العامة، وهو مما لا تحمد مغبته.

* * *

obeikandl.com

السعادة مع التفرد محالة
ولزوم اجتماع الناس فى توزيع
الخيرات المشتركة

openkamal.com

السعادة مع التفرد محالة

ولزوم اجتماع الناس فى توزيع الخيرات المشتركة

الإنسان لا يمكنه الاستقلال بتحصيل ضرورياته، فإنه على الأقل مفتقر إلى مطعم يحفظ به بقاء هيكله، وسرابيل تقيه الحر والبرد، ومسكن يؤويه ويمنعه من العاديات. وإذا قدّرت له مطعمًا وملبسًا ومسكنًا غاية فى السذاجة، احتاجت هذه إلى كثير من العمال والصناع، كزارع وطحان وخباز، ثم غزال ونساج وخياط، ثم بنّاء ونجار وحداد، ويتبع أولئكم من الصناع والعمال الآخرين جماعة يكادون لا يتناولهم الإحصاء، وأعمال شتى كهذه لا يتأتى لواحد أن يباشرها وحده. ولهذا كان الناس فى حاجة إلى الاجتماع، لتتوزع عليهم الأعمال المختلفة، ويقتطف كل من ثمارها، وهذا معنى ما يقال «الإنسان مدنى بالطبع»، وبعبارة موجزة، إنه بمقتضى الطبيعة، فى حاجة إلى الاجتماع مع الآخرين، لا يمكنه التفرد.

هب أن الشخص إذا انفرد يأكل من نبات الأرض وخشاشها، ويتخذ له لباسًا من جلد الحيوان يصنعه كما تهيأ له، ويأوى إلى جحر أو مغارة، فهل يستقيم حاله مع هذا؟! وإذا ألم به مرض أعجزه عن تحصيل القوت، أو فاجأته فى مغارته عرجلة من السباع، بله سبع واحد، والعوارض كثيرة، فكيف يكون حاله حينئذ؟!

إن الإنسان إذا عاش مفردًا، كان مثله كمثل نباتة فذة، إذا سلمت عفوًا من الآفات حينًا، ثارت عليها فى حين آخر ريح عاصف، فاجتثتها.

إن ما يجده الإنسان من الأنس بمخالطة نوعه والتسلى بهم، وخصوصًا عند الحوادث، لكثيرٌ، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ولا يبكون مثل أخى، ولكن أسلى النفس عنه بالتأسى

انظر كيف جعلت الشرائع، على اختلاف أنواعها، السجن نوعًا من العقوبات، وفى السجن حرمان الشخص من مخالطة نوعه.

وإذا أتيح لإنسان أن يعيش وحده زمنًا، حُرم جميع المعارف التى يصيبها من مخالطة الناس، وبقى على مقربة من سائر الحيوان؛ إنما يتميز عنه ببقية من استعداده الفطرى. ويمكنك أن تتعرف هذا مما تجده فى القروى، بالإضافة إلى المدنى، فإنك ترى منه غرًا قليل التجارب. ومثل هذا الفرق تراه بين من يسكن الكفور الصغيرة، وبين من يسكن القرى إلى أن تنزل إلى الإنسان المفرد.

على أن الوسائل والدواعى التى تُقدره على طلب المعارف المتنوعة، وتدعوه إليها تكون معدومة فى حقه.

وإذن، فالسعادة فى اجتماع الناس، وتوزيع الأعمال عليهم، واقتطاف كل واحد من ثمرات أعمالهم، حتى يحصل الخير للجميع.

***

الحكمة

في تشريع اجتماع الناس

في الصلاة والمواسم

obeikandl.com

الحكمة

فى تشريع اجتماع الناس فى الصلاة والمواسم

جاءت الشرائع السابقة بالاجتماع، فاليهود لهم اجتماعات فى كنائسهم، والنصارى لهم اجتماعات فى بِيَعهم.

وكذلك الشريعة الإسلامية، جاءت بالاجتماع، ولكن على وجه أكمل؛ فجعلت على الناس أن يجتمعوا فى اليوم خمس مرات لصلاة الجماعة؛ وقد حض الشارع على هذا الاجتماع، وشدد فى طلبه. ففى صحيح البخارى، أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم! والذى نفسى بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا، أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء!».

والذى يلوح لنا من حكمة صلاة الجماعة أمور، منها: استيلاء عظمة الله تعالى على النفوس، وأخذ رهبته بمجامع القلوب، بما تحدثه هيئة المصلين، وقيامهم فى صعيد واحد للعبادة، من التأثير. ومنها: الأنس الذى يجدونه فى اجتماعهم، والصلة، فإنهم إذا اجتمعوا فى اليوم خمس مرات حصلت لهم الألفة، وقويت الرابطة. وإن كنت فى شك من هذا فارجع إلى ما تعرف من حال المعاشرة، تجد أن الذين يقل اجتماعك بهم، قد يعودون أجانب منك، وإن كانوا من قبل أصدقاء لك. ومنها: ظهور جماعة المسلمين مظهر القوة، بهذه الاجتماعات المتكررة، التى تنبئ بائتلافهم ووحدتهم؛ وهذا داع إلى أن يعظم أمر الدين، ويرجع من ناوأه بالخيبة والخذلان. ثم تنبيههم إلى انتظامهم

فى أمورهم، وطاعتهم لإمامهم، بما يرون فى الصلاة من استقامة صفوفهم، ومتابعة الإمام.

أما احتفال الجمعة فهو أكبر، وعناية الشارع به أتم، قال تعالى: «يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون». ذلك بأ المعانى السابقة، حاصلة فيها على وجه أتم، وتزيد الخطبة لدعوة الناس إلى ما يصلح أمور دينهم ودنياهم؛ وقد كانت من وظيفة رسول الله ﷺ، ثم خلفائه من بعده. ولما تغيرت الأحوال، وبَعُد الناس عن الدين، صارت إلى أجير، ربما لا يفقه شيئًا من أغراض الدين، ومصالح الدنيا، واتخذها حرفة كالتجارة، يرتزق منها، ويأخذ عليا أجرًا، ولكنه حقير.

أما الحج، فهو ذلكم الموسم العظيم، الذى تُضرب له الأرض، ويؤمه المؤمنون من مشارقها ومغاربها، حتى يجمعهم فضاء رحيب، يكاد يميد بهم من تحتهم، ولهم عجيج يفزع منه الطير فى كبد السماء. وقد ورد فى كثير من الآيات والأحاديث، ومع هذا فلا نرى شيئًا أدل على عناية الشارع به، من جعله ركنًا من أركان الإسلام، لا يتم معناه ولا تكمل صورته إلا به. قال عليه الصلاة والسلام: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

أما حكمه، فمنها: التعارف بين جماعة المسلمين، وتأكد الرابطة. وإنك لترى كل عام، عقب الحج، ما يتجدد من الروابط والصلات، بين أناس وآخرين، ربما كانوا لا علاقة لبعضهم ببعض من قبل الحج.

ومنها: زيارة بيت الله تعالى، والطلاع على تلك البقاع التى فيها موضع الرسول، ومهبط الوحى، ومُتنزل القرآن. وهى، على قحولها، وبداوة سكانها، وبعدها من الخصب والعران، تذكر بأن القوة التى فاضت منها فأذلت الجبابرة، والرحمة التى تشقق من كوثرها جداول وجعافر أروت الناس، ليس مما ينبغى أن يضاف إلى خصوبة أو مدنية؛ إنما هى عناية الله، وفضله المحض. وإذا كانت الأمم المتحضرة قد جعلت بيوت حكمائها وشعرائها مزارات يؤمها القاصى والدانى، ورأت لهذ معنى، فزيارة بيت الله، ومقر رسوله، ومنبع العرفان والحكمة، أولى.

ومنها: ما يعم سكان تلك الأجادب، الذين هم جيرانه، وحماة حرمه، من الخيرات التى يسوقها إليهم جمع الحجيج.

ومنها: اجتماعهم بعرفة، فى فضاء واحد، ووقت واحد، لنحو سماع الخطبة التى يجب أن تكون فى مصالحهم وأهم أحوالهم الحاضرة. عن رسول الله ﷺ: «الحج عرفة، أو كما قال». ومعناه: الإشارة إلى السر الذى فى هذا الركن، حتى صح أن يطلق الحج عليه؛ ونظيره إطلاق العين على الجاسوس، مما هو شائع فى اللغة.

هذا وإن الحج لمؤتمر عظيم للعالم الإسلامى، ينبغى أن يجمع عظماؤه وأمراءه، يتشاورون فى أمورهم، ويقضون فى مصالحهم. ولكن المسلمين غيروا وبدلوا، فحرموا هذه الثمرات، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

obeikandl.com

المحبة وأنواعها

وسيرة الإنسان مع أهل نوعه

المحبة: ما تجد فى نفسك، من الميل إلى ملائم لك. ويقابلها البغض، وهو النفور من غير الملائم. وهى وصف شريف جدًا، لأنها تخمد جذوة الرذائل؛ ومعنى هذا: أن رذائل الشخص قلما تصيب من أحبه، ومن ثم قيل: العدالة خليفة المحبة، تستعمل حيث لا توجد المحبة.

بينا فيما سبق، ثمرات الشفقة وأثرها فى العالم، ولا شك أن مقداراً كبيراً منها مبنى على المحبة. فقد رأينا بعض المعلمين جفاة غلاظ الأكباد، لا يرأفون بأسيرهم، إلا أنهم مع بنيهم أرق أخلاقًا من النسيم، وأعطف من الدجاجة. ذلك بأن الشفقة ليست خلقًا أصليًا فيهم، إنما هى ثمرة من ثمار المحبة.

الإنسان إذا أوتى قسطًا وافراً من محبة الناس، صار بقدر قسطه إنسانًا خيراً. فالذى يحب أمته محبة صادقة، يسعى جهده فى خيرها. والذى يحب الناس، ويخلص لهم، يسعى فى حاجاتهم، ويكون قريب الخير، بعيد الشر، ويدهم فى سرائه وضرائه، ويبقى حياته فى راحة. ومن لم يوفق إليها، يلق كثيراً من الشدائد، ولا يكون له نصيب فى الأنس الحاصل بالاجتماع، وتكون خلوته خيراً. ولهذا ينبغى أن يكثر المربون من حديثها للناشئين. ويلفتوهم إليها، قال سقراطيس: إنى لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك، ووقائع بعضهم ببعض، وذكر الحروب والضغائن، ومن انتقم أو وثب على صاحبه، ولا يخطر ببالهم أمر المودة، وأحاديث الألفة، وما يحصل من

الخيرات العامة بالمحبة والأنس. وإنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة، وإن مالت إليه الدنيا بجميع رغائبها. فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير، فالصغير من ظن ذلك. اهـ.).

وهى أجناس: فمنها: محبة الولد لوالديه؛ فإن المحبة، والإخلاص، والاحترام، ديون يجب على الولد أن يؤديها، إزاء نعم والديه عليه. قال عليه الصلاة والسلام: «الولد مجبنة مبخلة» ومعناه، كما هو بين، يدعو إلى الجبن والبخل، ويحمل عليهما. فالوالدن لم يكفهما سائر نعمهما على الولد، حتى صارا إلى التنازل من فضائلهما الشخصية. وقد قال تعالى: ولا تقل لهما أف، ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريمًا. أما تفصيل نعم الوالدين فبيّن، فلا نطيل فيها القول.

ومنها: محبة المعلم للمتعلم وعكسها؛ فالمعلم متى أخلص فى وجهته، وتوخى الخير حقيقة للمتعلم، ، وكان المتعلم مجتهداً قابلاً، يبغى الخير، تمت الألفة بينهما، على نحو ما يكون بين الأب والابن. فإن المعلم، حينئذ، يحاول نقل صورته المعنوية إلى التلميذ، ويكون هذا الأخير فى المعنى صورة منه.

ومنها محبة الإنسان لأهل دينه: قال تعلى: «إنما المؤمنون أخوة». نعم إنهم ليسوا إخوة من النسب، ولكن اتحادهم فى العقائد والشعور العام، وخضوعهم لسلطان دين واحد، مما يقرب بعضهم من بعض ويجعلهم أخوة.

فاللازم أن يحققوا معنى هذه الأخوة، بأن يستطلع بعضهم أحوال بعض، على الأقل، وإن كان هذا فى المشرق، وذلك فى المغرب، ويتعاونوا ويتناصحوا. وإلا فهم مؤمنون، صورة، وإنما الأخوة للمؤمنين حقًا.

ومنها: محبة الجار؛ لأنه امرؤ شديد العلاقة بك، كثير الروابط؛ وإن كان من بنى وطنك وهو الغالب، فهذه علاقة ثانية؛ وإن كان مؤمنًا، فهى ثالثة. وقد سنت الشريعة الإسلامية للجار كثيراً من الحقول، فارجع إليها. فى صحيح البخارى: قال عليه الصلاة والسلام: ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه.

ومنها محبتك لوطنك وبنيه؛ قال ابن الرومى:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

فوطنك هو الذى نشأت فيه، وأقلتك أرضه، وأظلتك سماؤه، وغذاءك نباته وحيوانه، وأرواك ماؤه.

وطنك تراث لك من آبائك، لم يصر إليهم عفوًا، إنما ملكوه بعد أن أدوا ثمنًا نفيسًا، هو دماؤهم التى سالت على حدود المناصل، وأطراف الأسل، وارتوى منها هذا الثرى، الذى تطؤه الآن بنعليك. فإن استطعت فاخلع نعليك، نعم ما أنت بالوادى المقدس طُوى، ولكنك بوادى النيل: حيث دماء آبائك المسفوكة، ولحومهم البالية، وعظامهم الناخرة.

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهـ ـد هوان الآباء والأجداد

ألم تر إلى اليهود لما لم تبق لهم حكومة ولا وطن، ، تشتتوا فى البلاد، وبطلت جامعتهم، وصار كل منهم نزيلاً فى مملكة، ثقيل الظل، جامد النسيم. وبعض الممالك جعلوا يشردونهم من بلادهم، ويذبحون شيوخهم وأطفالهم، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم. تلكم أمة الروس، فانظروا إلى ما صنعت بهم.

ويا ليت شعرى: مـا معنى الأمة؟ وكيف يستقيـم لها حال إذا كان كل جمـاعة منها نزلاء فى أمـة أخرى، تسومـهم الخسف، لا فى العـير ولا فى النفير!

إن الكلاب إذا توطن جماعـة منها فى بقعة، فزاحمهـا آخر ليس منها، أخذتها سورة الغضب، وكشرت عن أنيابهـا فنبحته، وصالت عليه، وتأحدت لإجلائه عن موطنها. ومثل هذا تشاهد فى القطاط المستوطنة فى منزل، عندما يزاحمها قط أجنبى؛ وأظن أن هذا سنة فى سائر الحيوان الأعجم.

قد يكون لك البيت فى الحارة الرديئـة، وهو مع ذلك ضيق الحجر قليل الوضوء، فاسد الهوى، فنحن إليه وتتعهده بالإصلاح. فياعجبًا لك! كيف لا تحـفل بوطن، أمـا شمـاله فـمطل على بحـر الروم، وأمـا جنوبه فـمتـصل بالسودان، يشقـه النيل، ويغطى تربته بساط أخضر من النبـات، وتعلوه سماء زرقاء صافية الأديم، ويتهادى بيـنهما النسيم؟! إنك إذًا لظلوم! أما بنوه فإنهم إخـوانك الذين تـربطهم بك روابط شـتى، كـاتحـاد المـصـالح، والعـوائد، والحكومة، واللغـة، والقانون، والتـربية، والفكرة فى الجـملة. فأنت فى أى بقعة من وطنك، فى بيـتك وبين عشريتك. إذا اعتدل النيل فى فـيضانه كنتم سعداء معًا، وإن نقص عن الحاجة أو طغى، فأنتم على حال واحد. وكذا إذا عدل القانون والحاكم، أو جارًا، فإن شعـوركم يكون واحدًا؟! فلا تعتبر هذه البلاد مع ذلك وطنًا ينبـغى أن تحبه، وتحرص على خيـره، ، وسكانها إخوانًا تودهم وتعـمل لصالحهم؟! إنك إذًا لظـلوم!! إذا ارتحلت إلى جهة نائـية نظر إليك قدر ما ينظر إلى وطنك، كأنك تحـمل رايته الحمراء، ذات الهلال، وفى صورتك الصغيرة، انطوى هذا العالم الأكبر!! أفلا يكون هذا داعيًا إلى محبة

الوطن وبنيه، والسعى فى رفع ذكرهم، وإعلاء كلمتهم؟! نعم إن كنت ابنًا بارًا وأخًا يفهم هذه الروابط! بل ينبغى أن تحب الناس جميعًا، وتعاملهم بالمعروف لأنهم يخدمونك، وإن نأت الديار، واختلفت المذاهب. إن كنت تشعر من نفسك بذلك، فأنت إنسان كامل، وإلا فإن اقتصرت على محبة المصريين، فما أحراك أن تدعى مصريًا فقط. نعم إن حقوق المصريين عليك أكثر.

وأخيرًا لا يحسن أن يفوتنا تنبيهكم إلى أن الأديان على اختلافها، قام فيها جماعة يدعون العلم بها، وهم أبعد الناس عن أغراضها فزرعوا البغضاء فى نفوس الناس وولدوا الشقاق فيهم، والتفرق بينهم، وصار الواحد يظن أن من ليس على دينه له فطرة أخرى. وتلا هذا كثير من المصائب فى بنى الإنسان، فلا يخدعنكم مثل هذا. فالأديان إنما جاءت للتأليف بين الناس، وإصلاح الفاسد، من عوائدهم ومعتقداتهم، فلا ينبغى تأويلها بالتفريق والعداوة بينهم، وجعلها مانعًا من محبة الناس، بعضهم لبعض، ورحمتهم، ومعونتهم، عند الحاجة. فالخلق عيال الله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

***

الصداقة
وما يجده الصديق مع صديقه
ومع الناس

obeikandl.com

الصداقة

وما يجده الصديق مع صديقه ومع الناس

إذا تمت المحبة بين شخصين، وكان هناك مشاكلة فى الطبع، وتوافق فى المذاهب، وائتلاف تام حتى كـأنهما شطرا كرة، أطبق أحـدهما على الآخر، حـصلت الصداقـة. وكـما أننا لا نجـد فى الأشـياء المحـسـوسة، كـالألوان والأصوات، اتفاقًا تامًـا بين فردين منها حتى نحسبهمـا واحدًا، كذلك الشأن فى أحوال النفس، مع كثرتها التى لا تنضبط. قال أرستطاليس: إن المعول فى الصداقة الحقة، على السرور الذى يجـده أحد الصديقين، من فضائل الآخر، وأوصافه الراسخة. ولهـذا لا تحصل إلا بين الأخيار، وتدوم الدهر بينهم. أما المنفعة المشـتركة، والميل العرضى، فليسـا من دواعيها. نعم إنهما سـببان فى الاتصال، الذى يؤدى أحـيانًا إلى ضـرب منها، ولكنها حـينئذ تكون مـهددة بالزوال؛ لأنه متى انقطعت تلك المنفعة، فما أقـرب انحلال الصداقة! كما أن عروض ما يخل بالمساواة بين الصديقين إخـلالاً واضحًا قد يبطلها. لأن تذكر المساواة السابقة، مما يصيـر الحال الطارئة وقرا على الصديق، الذى لم تلاحظه عين العناية. ومن أجـل هذا، كانت الـتغـيـيـرات العظيـمة فى حـال أحـد الصديقين، تنتظر منها انحراف مجرى الصداقة. اهـ بتصرف.

والصداقة التى تنعـقد فى الصغر، تكون أمتن وأجـدر بالبقاء، من التى تنعقد فى الكبر. فإن صراحـة الشاب، وإقباله على الناس، وثقته بهم، تكون أكمل.. ذلـك بأنه قضى أيام عـمره فى دار أبيـه، فلم يَبلهم، وهو مع هذا شارع فى دراسة العالم، ومـدفوع إليها، بخلاف الكبيـر، فإنه بلاهم، فصار حذرًا منقبضًا عنهم بعض الانقباض.

أمـا الأخلاق التى ينـبغى أن يكون عليـهـا أحد الصـديقين، فـهى فى الجملة، الأخلاق التى ينبـغى أن يكون عليها مع سائر معـاشريه، وإن كانتت تظهر هنا فى صـورة أكمل. وذلك كالصراحة، وقـد تصل بين الصديقين إلى ألا يكتم أحدهما من الآخر أمرًا كائنًا ما كان؛ والسخاء، وقد ينتهى أمره إلى أن يصير أمره إلى أن يصيـر مال أحدهما كأنه مشترك بينهـما، كما قيل: (لا حرج على الصديق فى مال أصدقائه)، والاحتمال، ونحوها.

وثمرة الصـداقة على وجه عـام، أن كلا من الصديقين يجـد فى الآخر كمالاً له، فى رأيه، وتجاربه، ومعارفه، كـأنه أضاف إلى عمره عمرًا آخر، أو تضاعفت نفسه، وظهرت فى هيكلين.

قال بـعض الحكماء: الصـديق هو آخر فى الشـخص، إلا أنه أنت فى النفس.

وليحذر الأصدقاء من الأمور الآتية، كما نبه علماء الأخلاق:

إذا لاحظتك عين العناية، فـجزت حـالك إلى أرقى منه، فلا يدفـعنك ذلك إلى الفـخر، ولا توجه عـنايتك إلى أن يطريك صديقك، ويثنى عـليه، بأنك خليق بهذه المنحة. ويُطلب مع هذا أن تعـرض عليه مما نلت، على وجه لا ينفره.

إذا أصاب صديقك نعمة، فكن متـحفزًا لأن يطلعك على ما صار إليه، مع مقاسمته سروره، ولا يأخذنك الطمـع فى مقاسمته ذلك الذى صار إليه. أما إذا تثـاقلت عن مشاركتـه فى سروره، والإقرار بأنه جـدير بذلك، صُرف تثاقلك إلى الحسد.

وإذا أصابتك جائحة من الدهر، فلا تسع فى كتمانها عنه، ولا تنقبض من حُنو يهديه إليك، وإن كان مثل هذا الحنو مما لا ترتاح إليه النفس أحيانًا.

وإن ألمت بصديقك يوما ملمات، واستطعت أن تصرفها عنه، أو تحتمل شيئًا منها، فافعل؛ ولا تُلح عليه فى طلب إخبارك بما ألم، وكيف ألم. وكن حذرًا عند ظهور شفقتك عليه، فلا تظهر منها قدرًا يثقله. وإياك وأن تظهر له أنه السبب فيما ألم به، كأن تقول له: أخطأت فيما صنعت، ألم أقللك إن ما صنعت يؤدى إلى ما حل بك؟ فإن مثل هذا القول مما لا يتحمله أحد من الناس، جر على نفسه مصيبة، وإن كان حقًا كيفما كان، بل تراه فى هذا الحال يبحث عن آخر يلصق به الخطأ، ليخلص من الندم على ما فرط منه.

ونذكرك بأن بعض الناس قد يصطفون الجهلاء لأمر يعجبهم فيهم، فيلقون منهم عنتًا. وإذا انحلت صداقتهم أفشوا أسرارهم، وأوقفوا الناس على ما لا يحبون، فاحذرهم.

احذر عدوك مرة   واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ   ـق فكان أعلم بالمضرة

هذا، وينبغى أن تحذر مع جميع الناس أمورًا أنبهك على واحد منها، جدير بالعناية، وهو عدم التعويل على أقوالهم، وصورهم التى يظهرون لك فيها، حتى تبلوهم.

* * *

obeikandi.com

openkanal.com

ما ينبغى الاقتصار عليه
من المأكل والملبس ونحوهما

أسلفنا أن الإنسان مفتقر إلى مطعم يحفظ به بقاء هيكله، وسرابيل تقيه الحر والبرد، ومسكن يؤويه ويمنعه من العاديات. فينبغى أن يقتصر فى أمر مأكله على ما يؤدى هذا الغرض، ولا ينال منه إلا بقدر ما يغذى جسمه، ويحفظ اعتدال مزاجه، ويعوض ما فقده بالحركة والعمل. لا يزيد على ذلك إلا بمقدار يدفع عنه عيب البخل باعتبار العرف؛ فالمعدة، كما قال ﷺ، بيت لاداء. ولا يفوتنك أن خروج المأكل عن الباطة، والإكثار من ألوان الطعام، والاستعانة على التناول منه بنحو التوابل، وصرفه إلى اللذة، حتى كأنما عاش الإنسان ليأكل، مما يذهب بالقوة والصحة، ويستتبع كثيراً من الأمراض والآلام. ويظهر لك ذلك إذا قارنت بين الذين يعيشون معيشة بدوية، وبين الموسرين من سكان المدن.

وينبغى أن يقتصر الإنسان فى أمر الملبس على ما يكون موافقًا للصحة، من جهة سعة الملابس وضيقها، وحرارة الجو وبرودته، مساعداً له على العمل، غير ذاهب بنشاطه، ميسراً له خلال الخير، نحو الصلاة، فإن للملابس بلا مرية تأثيراً فى بعض العوائد والأعمال. ولا يخرج فيها عن الحشمة، ولا يتأنق فيها إلا بمقدار ما جرت عادة المعتدلين من طبقته، حتى لا يزدريه العرف، ولا يسخر به. وإن «القفطان» وخصوصًا بعد تعديل قليل، خير من «البنطلون».

وكذلك ينبغى الاقتصار فى المسكن على أن يكون موافقًا للصحة من

كل وجه، حسن الشكل، متين البناء. يروى أنه ﷺ قال: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا. أما النقوش والزخرف، وارتفاع البناء فوق الحاجة، مما يضاعف النفقات بغير معنى صحيح، فهو تبذير مذموم.

غالى بعض الناس، وخصوصًا فى القرى، حيث يغلب التفاخر، وتشتد الغفلة، فأتلف جميع ثروته فى تشييد منزل، بل احتمل بعضهم من الدين فوق طاقته، فلم يستطع أن ينهض به.

وكذلك الحال فى الملبس، جعله كثير من الشبابن زينة، فتأنقوا فيه، وأكثروا منه ما شاءوا وشاء لهم الهوى، حتى أتلفوا فى سبيله أموالاً جزيلة. وخرج كثير من النساء عن الحد فى الحرص على اللباس المزين، ووقع من أجل هذا بعض الأسر فى الضنك والفاقة؛ فقد يكون عند الرجل قليل من المال جمعه لأمر يعرض، أو لأمر بعينه، فلا تحسب المرأة ذلك شيئًا فى جانب حاجتها إلى حلة مزخرفة، فيقع الرجل بين حالين، أحدهما شر من الآخر: إما أن تفوته حاجته على شدة اضطراره إليها، أو يقع مع زوجته فى شقاق.

وكذلك أمر المطعم، أوقع التأنق فيه، والإكثار منه، عددًا من الناس لا يحصى، فى انحراف الأمزجة، واختلال الصحة. ولو تأتى لنا إحصاء مرضى بطونهم وقتلاها، لحصلنا على عدد يوقع فى الدهشة، وعلمنا فوق علمنا الآن، أن العالم بأسره خسر جزءًا من قوته أى جزء.

وبالجملة، فإن مجاوزة الناس الحد، فى المطعم والملبس والمسكن، ألقى على ظهورهم أعباء من النفقات ثقلة، ففقدوا راحة الدنيا فى سبيل جمعها، وأمات فيهم كثيرًا من الفضائل، وأحيا كثيرًا من الرذائل، فقل الخير وكثر الشر. وحبذا لو تأتى إنفاق هذه القناطير المقنطرة، من الذهب والفضة، فى إصلاح شأن الإنسان وإكماله.

obeikandl.com

كلمات قالها بعض المدرسين فى مدرسة المعلمين الناصرية يخاطب بها الطلبة الذين قبلوا فيها سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ يوم استقرارهم بها

من أنتم؟ وماذا يراد منكم؟

الفضيلة، ونعنى بها الخُلق الفاضل، والعلم، هما السبب الأقوى فى رقى الإنسان. والرذيلة، ونعنى بها الخلق الناقص، والجهل، هما السبب فى هبوطه عن معارج الكمال. فكل أمة عليها أن تسعى فى الاقتراب من الأولين، والابتعاد من الأخيرين، قدر حرصها على رفعة شأنها وبُعد صيتها. وقد تدبتكم هذه الأمة المصرية، التى قعد بها بعض أخلاقها، وعدم رسوخ قدمها الآن فى العلم، والتى أنتم من أعضائها، لتخلفوها فى تربية أبنائها، وتخرجوهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وتقوموا فيهم باستئصال الرذيلة وغرس الفضيلة، كما انتدبت غيركم من المعلمين. فاسعوا جهدكم فى أداء ما عهدت به إليكم على الوجه الحق، سعيًا تعلمون فيه ضمائركم وأفكاركم، لا أرجلكم وأقدامكم؛ وهذا قول مجمل أفصله لكم بعض التفصيل:

أيها الطلاب! عندما كنت طالبًا مثلكم فى هذه المدرسة، قرأت فى بعض كتب الكيميا: «قال الفاضل لافوازييه كذا»، فقلت فى نفسى هذا خُلفٌ بين! لأن كلمة فاضل تستعمل للدلالة على الاتصاف بالعلم! وأنى جاء العلم لمسمى بمثل هذا الاسم؟! ذلك أنى كنت أتوهم أن لفظ علم، ليس من حقه أن يستعمل إلا فى الفقه والنحو والصرف، وأشباهها، مما يُعلم فى الأزهر. كما كنت أستنكر بعض الاستنكار، أن يقال: «العالم الفاضل فلان أفندى»!

جرنى عهدى بنفسى يومئذ، وإن لم يكن من غرضى القول فى العلم أصالة، أن ألم بما يأتى، فربما كان بينكم من يزعم مثل هذا الزعم:

إن موضوع العلم، كما يكون اللغة، كالنحو والصرف والبلاغة، يكون كل شىء فى هذا العالم، من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وجميع ما تقع عليه حاسة، أو يحيط به فكر. ولئن كانت ثمرة علم الصرف مثلاً صون اللسان عن الخطأ فى المفردات، ومراعاة قانون اللغة فى الكتابة، إن ثمرة الدراسة لهذه الأشياء التى تحيط بنا، بسطة سلطاننا على العالم، وتسخيره فى مصالحنا، واندراجنا اندراجًا بينًا فى المخاطبين بقوله تعالى: «خلق لكم ما فى الأرض جميعًا». ولا ينبغى لنا أن نستهين بدراسة علم، وإن كان موضوعه ضئيلاً حقيرًا فى نظرنا، فليس ثمة علم بحيث تصدنا حقارة موضوعه عن دراسته بعناية، وإن كان علينا، يوم يُوكل الاختيار إلينا أن نوجهه إلى ما يرتبط بسعادتنا وإتقان عملنا فى هذا المجتمع. وربما كانت دراسة الشىء التافع، كالنمل، سببًا أو جزءًا من السبب فى تيقظ شعور فينا، أو تحرك ميل، بحيث تكون هذه اليقظة والحركة أساسًا متينًا لأعمال كبيرة، تجلب لنا السعادة عاجلاً وآجلاً.

إن كانت الأخلاق الفاضلة سببًا بينًا فى تحصيل العلوم والعمل بها، فإن للعلوم كذلك أثرًا فى الأخلاق لا ينكر. فمن درس الحيوان ووقف على الأسرار والثمرات المودعة فيه، خليق بأن يجد من نفسه رحيمًا به شفيقًا عليه. لهذا أنصح لكم باستقبال جميع العلوم الحديثة، التى تلقى عليكم، بالإكبار والإقبال التام، حتى ترتوى بها نفوسكم، وتخصب، إن شاء الله تعالى.

أيها الطلاب! ليس العلم - وإخالكم تعرفون رفعة شأنه من قبل - أمرا

أخلق بعنايتكم به من الخلق الفاضل. فإن هذا الأخير عليه تدور السعادة، كما ستعلمون مما يأتى، فى خلال الدراسة. إن كان العلم بمنزلة مصباح فى يد العامل يستضىء به وقت العمل، فإن الأوصاف النفسية، وهى على الجملة أخلاق الشخص، هى التى تعده للعمل، وتدفع به إليه، وتمسكه فى خلاله.

فالعلم بمثابة بصر الشخص، والفضيلة بمثابة قوته. النفوس الكبيرة تحصل لنا العلم، والعلم لا يحثل لنا النفوس الكبيرة. إن عظماءء الرجال فى هذا العالم، الذين تولوا هداية أو إصلاحًا أو فتحًا، أو قاموا بكشف أو اختراع، لولا ما هم عليه من شجاعة وثبات، وصبر ومحبة للناس مثلا، لم يستطع عالمهم أن يعمل بعلمه شيئًا. أما الذين لم يكونوا منهم فى مصاف العلماء - وهم أكثرهم فيما يظهر - فقد كانت رءوس أموالهم الأخلاق الفاضلة وحدها.

إن الخلق الفاضل يهدى إلى المجتمع الإنسانى رجالا عاملين نافعين، أكثر مما يهدى العلم. وإن الرجل الكريم الأخلاق، الذى لم يسمع من العلم إلا صوت ضميره الطاهر، ولم يقرأ من كتبه إلا أسطرًا من صحيفة الكون المنشورة لمطالعة القارئ والأمى، أكثر نفعًا لهذا المجتمع، وأقل ضررًا عليه. كما فى سجون هذا العالم من رءوس كبيرة بيضاء، لأن معها قلوبًا صغيرة سوداء؟! ذلكم بأ العلم إذا صحبه خلق الشر، خليق فى الكثير من أحواله بأن يُطرح فى السجون المظلمة، حتى يستريح هذا الناس من شره. وجملة القول: إن رجال الخير والعمل، هم رجال الأخلاق، قلّت معارفهم أو كثرت؛ وإن رجال الشر والفراغ، هم رجال الرذيلة، قلّت معارفهم أو كثرت. فأحلوا الأخلاق الفاضلة من نفوسكم محلها.

أيها الطلاب! نحن نعترف، مع الأسف، بأننا كذابون، لا نصدق فى قول ولا عمل، غشاشون، إذا ولى واحد منا أمرًا لا يديره على وجهه. لا يجلس بائعنا بين الجمهور، يبيع بضائعه منه بالصدق والأمانة، إزاء ربح لائق تقوم به معيشته، بل يجلس جلسة لص محتال، وبضائعه أمه وسائل لرواج حيله ونفاذ غشه. يزبد فى الثمن زيادة فاحشة، ويعرض الردىء باسم الجيد، وينقص المكيال والميزان؛ ويريك الشىء، وعند نقد الثمن يحاول أن يخدعك بإعطائك أدنى منه. ويقول فيكذب، ويؤكد قوله بالأيمان، فيكون كأبى المثنى:

وأكذب ما يكون أبو المثنى إذا آلى يمينًا بالطلاق!

ويسلبك من النقود ما استطاع، كما يسلبك من الزمن، وثقتك بالناس، وركونك إليهم، وأسك بهم، شيئًا كثيرًا. وصانعنا أيضًا يجر على سننه: يقول فيكذب، ويعد فيخلف. وموظفنا لا يسعى فى طريق الإصلاح لقومه، بل يسلم نفسه إلى الأغراض والأطماع، ولا يهمه عدل ولا حقيقة ولا مصلحة؛ إنما هى صور يرد أن يدفع بها سؤال من فوقه. فالجمعية صورية، وكل يعمل لنفسه وإن آذى غيره، ويسعى فى تحصيل المال من وجهه ومن غير وجهه، بلا مبالاة بالفضيلة، ولا رجوع إليها فى شىء. إننا وكلون غير مستقلين، يغلب علينا التقليد وصرخة واحد ينقاد لها الجمع من غير تفكير؛ وليس فينا من يعول على نفسه حقا. وهذا مما يجعل كثرتنا قلة، وألوفنا لا يساوون آحادًا. إننا مغرورون؛ نحسب لأنفسنا، فى ذاتنا، وبالإضافة إلى غيرنا، ما ليس شيئًا. ولاغرور من أسباب الغطرسة، والمقت والجهل والتأخر. إن رفعنا أصواتنا نفخر بما شيده قدماء المصريين من أهرام ونحوها، لدلالة ذلك على وجود بعض الصناع والعلوم فيهم، فما أحرى هذه

الأصوات العالية فى الفـخر، أن تصرف فى الشكوى من سوء الطالع؟! لأننا من يوم تشـييـد هذه المفاخـر المزعومـة، ابتدأت أغـلال العبـودية توضع فى أعناقنا، فأخذنا نهبط إلى الأخلاق التى استقررنا عليها اليوم. وما كان أحسن حالنا لو كنا فى أعصـر ابتناء تلك لامفاخر الوهمـية، نرعى الإبل والشاء فى الصحـراء، وبقينا على أخـلاق الفطرة؟! إننا جاهلون؛ ينبغـى أن نفكر حتى نشعر بجهلنا، ونعمل أقدامنا فى سبل العلم، ونلقى عنا لباس الكسل، الذى طالما أخذنـاه. إن كنا قد سبـقنا الأمم المتأخـرة خطوات، فقـد سبـقتنا الأمم المتقدمة فراسخ. هذا الأخلاق ونحوها، مما نحن متصفون به، هى السبب فى تأخرنا، حيرتنا، وتألمنا.

وإا لا نشك فى قـدرة المعلمين المخلصين الأمناء، على أن يجـعلوا من الصبى الصـغيـر، رجلا كبـير النفس، شـريف المقصد، طاهـر الذمة، طيب الأخلاق؛ ولا سـيما متى طال الزمن، وانتـشرت التربية فى الأسـرة والأمة. وإلا فما لنا نـشاهد الذى نشأ بين قوم مـستمسكين بالصـدق، يكون صدقًا، وابن اللص يصيـر لصا، إذا لم يكن للقـدوة الحسنة أو السـيئة تأثيـر؟! ومثل الصدق والخيـانة، غيرهما من الأخلاق، إلا النذر الذى يرينا التـأمل خروجه عن طاعـة الشخـص، وارتباطه بالعـصب تمام الارتبـاط، وانقـياده لأحـواله المختلفة، كالجزع من أقل شىء. على أنه ليس من البعيد أيضًا، إمكان التأثير فى هذه الأخلاق، بواسطة التأثير فى الأعصاب. إن الأخلاق والأميال موضع للتغيير. وكما أن النواة متى صادفت الغذاء اللائق صارت نخلة كبيرة، كذلك الخلق، متى مدته الملائات والفـرص، صار ملكة راسخة، ووجدانا يتـعسر أو يستحيل قلعه. كم من سخى بعض السخاء، صار فى آخر أمره مغرى بتوزيع

مالـه فى طرق الخيـر، لا يكاد يمسك منه قوت يومـه؟! صيـره إلى ذلك ثناء الناس عليه، مـثلا، وتوالى بذله، حتى اسـتولت على نفسه ملكة السـخاء. لذلك يقال بحق: السـخاء بالتسـخى. وكم من ذمة صالحـة بعض الصلاح، رفعـتها أمـور إلى مرتبة شامـخة، حتى صـار صاحبـها حريصًـا على طاعة ضميره، حـرص الجبان، جبان الحرب على نفـسه؟! وكم من أبى صادفه فى طريقه أشيـاء أنسته ما كان له من الإباء؟! وكم من خـائن كان يتردد ويرتجف فؤاده عـند سرقـته الدرهم، أصـبح لا يتردد عند سـرقتـه القناطير، وسـفك الدمـاء، بعد أن أخـرس ضميـره وقضى علـيه؟! ولكن اسـتعـداد الأخلاق والأداب للغرس والجث، والمد والجزر، أتم ما يكـون فى زمن الصغر. ولهذا سسهل علينا نوعًـا ما، أن نرى بعض الرذائل فى الصغير، لبقاء أمـلنا متعلقًا بإقـلاعه عنهـا، ونزوعه إلى الصـلاح. أما إذا شب على الرذيلة فـقد انتـهى الأمل فيه، وطال الحزن عليه.

أيها الطلاب! – أنتم الذين رضيتـهم هذه الأمة أن يخلفوها فى أبنائها، تقومون فيهم بنشر العلم وبث الفضيلة، حتى تؤهلهم لأن يكونوا فى الغد أمة خيرًا منها اليوم، أروح بالا، وأعلى قدرًا، وأرفع ذكرًا.

أنتم الذين يسـتطيعون، تمام الاسـتطاعة، أن يؤدوا لقـومهم وديارهم، المعونة الكبرى، متى أخلصوا فى أعمـالهم، وفكروا حقًا فيما نيط بهم، ولم يكن همهم كسب المال. أنـتم الذين رأت الأمة معونتهم فى الحـال، ليعينوها فى الاسـتـقبال عند قـدرتهم. عجلت لكم الثـواب على ما لم تفـعلوا بعد، فرحـبت بكم خمـس سنين على مائدتهـا، وقدمت لكم من الكتب ووسـائل التعليم، ما تحتـاجون إليه، وأعدت لكم المعلمين على نفقاتهـا، كما أمدتكم

بشيء من المال. فعلت كل هذا الاعتراف بهذا الإحسان، والتفكير من اليوم، فى أمر أبنائها وبناتها، قدر ما يرضى لكم زمن الدراسة، حتى تقابلوا هذا الثواب المعجل، بشيء من الواجب معجل. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

أنتم الذين رضيتهم هذه الأمة قُدى لأبنائها؛ فأصلحوا أنفسكم بلآداب والفضائل، حتى يكون لهم منكم قُدى صالحة.

أنتم فى الأمة صنف من الكُتَّاب متميز، بأيديكم من نفوس أبنائها وبناتها، صحفٌ نقية بيضاء، فاكتبوا فى هذه الصحف النقية البيضا بمداد الفضائل، ما تستطيعون.

أنتم فى الأمة صِنف من الزراع متميز، بأيديكم من نفوس أبنائها وبناتها، تربة طيبة مخصبة، فخذوا أهبتكم لأن تغرسوا فى هذه التربة الطيبة المخصبة، من الآداب والفضائل، ما تستطيعون.

أنتم فى الأمة صنف من الأمناء متميز، أودعتكم الثمين النفيس من قلوب أبنائها وبناتها، فاتقوا الله تعالى أن تمسخوا هذه القلوب الطيبة الطاهرة، بتفريطكم فى جانب الأدب والفضيلة.

خذوا أهبتكم لإصلاح قلوبهم، قبل أخذها لإصلاح ألسنتهم. وإلا فماذا تنفع ألسنة مستقيمة، وقلوب معوجة؟!

وفكروا من الآن، فى أن هذا أول واجب عليكم، حتى تنتهى هذه الفكرة يوم مباشرتكم لعملكم بالوجدان.

وعودوا أنفسكم اتباع ما توحى إليكم به ضمائركم، لا ما تزينه لكم

أهواؤكم. وإن تلجلجت هذه الضمائر التى منيت منّا بالقطيعة، فهذا كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فاحرصوا على الأخذ بآدابهما. ولا ينبغى أن تعتصموا بالمندوب، من إرسال العذبات، وإحفاء الشوارب، وإعفاء اللحى، وتنصرفوا عن الواجب الذى يقضى به مثل قوله تعالى:

«إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القرى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون».

لم أر أشد تأثيرًا فى تكوين الفضيلة فى النفس، من قراءة قصص الفضائل وسير الفضلاء؛ فاحرصوا، من الآن، على جمع ما ترونه منها موافقًا للناشئين، حتى تلقنوهم إياه متى جاء الوقت.

وخذوا من الآن، فى التأمل الصادق، والنظر الصحيح، فى أخلاقنا، وما جرَّته علينا، حتى يصبح لهذه المسألة الخطيرة موضع رحب من صدوركم. وأسأل الله تعالى أن يتولانا بمعونة منه، ويوفقنا لإيقاظ ضمائرنا، واستماعنا لما تناجينا به؛ كما أسأله تعالى، أن يهب لنا الإخلاص، والصدق فى القول والعمل.

***

obeikandl.com

إضافة

الأخلاق العملية

زرت الأستاذ - وحمه الله - يومًا فى منزله، عـقب رحلة إلى مستشفى الرفق بالحيوان، فسألنى عن الصندوق الذى يواجه الداخل من باب المستشفى، وعما دفعته فى الصندوق عـقب الزيارة، ولما علم بأنا لم ندفع شيئًا قال: وما فائـدة الزيارة إذا لم يتبـعهـا إحسـان؟ ثم كان درس فى الأخـلاق العمليـة، استغـرق نحو ساعتين، على عـادته فى المحادثة التى كانت تتـحول دائمًا إلى محاضرة قيمة.

وتلك كانت خطته فى قرن العلم بالعمل، من الوجهة الخلقية.

ولقد ضرب لنا مثلاً عمليًا، من آثار دراسـته الخلقية، فلم يفته المشاركة فى الحرب البلقانية سنة ١٩١٢م بقلمه ولسانه ويده وماله، فكتب فيما كتب، أربع مقالات فى جريدة «المؤبد»، بالعنوانات الآتية:

(١) عيد بأية حال عدت يا عيد؟ فى ٧ من ذى الحجة سنة ١٣٣٠هـ.

(٢) رحمة لبقية سيف ونار! فى ١٦ منه.

(٣) عطفًا أيها الأطباء! فى ٢٢ منه.

(٤) هل للمهاجرين من أنصار؟ فى ٢٩ منه.

وقد رأينا إضـافتها لمذكـرة الأخلاق، نتيجـة عملية لم فيـها من دروس أخلاقية، كما أنها دروس أدبية، ودروس وطنية، ودروس اجتماعية، ودروس دينية أولاً وأخيرًا.

ونسأل الله الذى وفقه، أن يـجزيه عن الإنسانية خير مـا يجزى به عبدًا من عباده المخلصين. آمين.

عيد بأية حال عدت يا عيد

جاء عيـد الأضحى، وكان إخواننا العثـمانيون يأخذون له أهبتـه، كما نأخذها نحن الآن؛ وتطلق فى ديارهم المدافع بِشـرًا بقدومه، وإيذانًا بحلوله، كما تطلق عندنا. وها هم أولاء الآن، لا يعدون لهذا العيد شيئًا!

نعم أقول بحق، إخـواننا فى الإنسانية. ولئن رجـعت هذه الأخوة إلى آدم – والعهد بعيد – فهم إخـواننا فى الدين، والدين أصل من أصول الجامعة البشرة. إهم أيضًا لإخواننا فى الرحم القيبة. أليس كثير منا يدخلون بيوتهم، فيـتلقاهم فى أزواجهم سـيدات عثـمانيات، وبنون منـهم وبنات، ترقرق فى وجوههم دماء عـثمانية، كما ترقـرق فيها دماء مصـرية؟! خلط بعضنا ببعض طول الصحبة، ووحدة الدين، وامتزاج الدماء، فاكتملت فينا الأخوة. فإن كنا بحيث لا تسـتميلنا إليـهم روابط الإنسانية، ولا تسـتفزنا أسـباب الدين، ولا تعطفنا عليهم فى بؤسهم أواصر القرابة، أصاب المقال فى إحساسنا موضعًا!

بلى! إن العثمـانيين أيضًا لينصبون لعيدهم أمـارات، ولكنها فى معناها ليست كأماراتنا! إن العثمانـيين فى هذا العيد تصنع لهم ثياب جديدة، ولكنها تصنع عصابات وأربطة لجرحاهم، وأكفـانًا لقتلاهم، لولا أن الشهداء يكفنون فى لباسهم، مضرجين بدمائهم الطاهرة! إن العـثمانيين فى هذا العيد لمتخذون علامات فـى لباسهم، ولكنها عـلامات حداد لا علامـات زينة! إن إخوانكم العثـمانيي لـتراق فى عيـدهم أضاحٍ فى كـما تريقـون؛ ولكنهم ضحـايا من رجالهم وأبطالهم فى حماية الذمار! فى مـقابل الأضاحى فى مصر، تراق فى هذا العيـد الأكبر، بديار إخـوانكم، دماء أبطال عثـمانية، معـصومة نقـية،

تخضب بهـا أراضيـهم وديارهم فى كل مكان! إن العثـمانيين فى هذا العـيد الأكبر، ليسمعون قصف المدافع ببـلادهم، فوق ما تسمعون ببلادكم؛ ولكنها ليست مدافع للبشر، والإيذان بحلول العيـد! إنها مدافع تنساب منها النيران، لنهب نفـوس أولئك الأبطال، وتأييم النساء، وتيـتيم البنات - والحـرب مأيمة ميـتمة - ونقض بناء الأسـر، وتقويض صروح السـعادة التى شادتهـا آمالهم وأعـمالهم، ، على تعـاقب العصـور الطويلة! إن العـثمـانيين فى هذا العيـد لمجهـزون أطعمة خـاصة؛ بيد أنها أطـعمة ملائمـة لجرحاهم ومـرضاهم! إن العثمانيين لمرتحلون لهذا العيد مـركبات، ولكن لا تسير بهم فى تحيات وتهانٍ؛ إنها مـركبات، أما بعـضها فللمـسير بهم إلى صف القـتال، واقتحـام مآزق الحـرب، ومركـبـات أخرى يسلـكون بها من بلادهـم كل درب، فى شئـون مصائبهم من كل ضرب! وأما سـائرها فيرتحلونه فى سبل الجلاء عن أوطانهم وأمـوالهم وقومـهم! فويل لأهل الأرض من تـلظى نيران الحـروب، وفعلهـا القاسى بالإنسان!! إن هذا العيد له ضجة فى كل دار عثمانية؛ ولكنهم أعوال النساء، وأنات المحزونين، وزفرات المنكوبين، لا هتاف صبيتهم بالسرور، كما كانوا يهتفون للعـيد من قبل! وأى صبية يهتفون بالسـرور، فى حجور أمهات مـعولات، وعـمـات باكيـات، وخـالات تصب العـبرات، وقـرابات كلهـا مـوجعـات، وأنواع شتى من المـصائب، إن تهـيأ للقـلم ذكرها، طال عليـه سردها؟!!

وما للعثمـانيين والعثمانيات، إن لم يحالفوا صـبراً لم تجر به العادة، لا يتابعـون تسكاب الدموع، حتى يستنزفـوا ماء الشئون، على آلاف مـؤلفة من حماتهم، القـوا - والعهد قريب - فى حفرهم، وآلاف مـؤلفة، يجودون فى

العيد بأنفسهم، ومثلهم فى مزدحم الوغى عليه الطير ترقبهم وقوعًا؛ وآلاف الآلاف، أصيبوا بمصائب لا يأتى الإحصاء على بعضها؟! نفوس سالت على ظباة السيوف، وأبطال كرام صرعى الواجب، يكاد السهل والجبل يضيق دونهم، مجندلون على الغبراء، ممرغون فى التراب، ملطخون بالدماء، يعالجون سكرات الموت، عطاش يستسقون فى يُسقون، ولا ينالون من هذا العالم إلا سنابك الخيل، نهاية شقوتهم فيه! وأسرى يُطعمون فى عيدهن ألوانًا من العذاب، تنتاب صدورهم الوساوس والهموم! استولى عليهم الذعر والقلق! لا يدرون بكل ما يحل بهم وبدارهم، وإن الشقى بسوء ظن مولع! وصنوف شتى من الجرحى: فمنهم من أخذت المدافع يديه ورجليه، ومنهم من بتر الرصاص منه بعض ذلك، ومنهم من كسر فكه، ومنهم من فقئت عينه، ومنهم من جدع أنفه، ومنهم ومنهم!! غضت بهم الديار، وضاقت عليهم المستشفيات بما رحبت، وقرت معهم فيها حمى تستعر نارها، وأقام بهم فى مضاجعهم آلام كثيرة! وأطباء وممرضات على وفرتهم قليلة! ونيران وتحريق، يحصل كل شىء، ولا يبقى على شىء! ومخدرات وغير مخدرات شتى،وجماعات، وشيوخ وأطفال، يتململون فى الفاقة والحزن، ويشردهم من بلادهم الفزع الأكبر، وقد كانوا قبل ذلك مترفين! كانوا يرتعون فى بسطة من العيش والمسرة والأمن! ضعفوا إلا عند ندب قتلاهم، وبكاء أسراهم وجرحاهم، ومتابعة الزفرات على ديارهم، وما اشتملت عليه ديارهم! وبالجملة، أسرة كبيرة، وأمة أصيبت فى كل عزيز عليها، وأحدق الخطر بملكها، وزلزلوا زلزالاً شديدًا!! تلكم، أيها القراء، صورة من تصرف الحرب، لا من تصرف الخيال والقلم!

أفبعد هذا لا تدب فى صدورنا الرحمة، ولا يتمشى فى قلوبنا الحنان؟!!

إن كنا مع هذه الذكرى لا نحطم مصابيح العيد، ولا نلقى عن كواهلنا لباس الزينة فيه، ولا ندع مراكب التطواف فى الطرقات للتهانى، ولا، ولا، ولا، أفلا تكفى معالم العيد، لتذكيرنا بما يلقى إخواننا من الألم والبلاء، والبؤس والشقاء، فننفس عنهم من كربهم ولو.. - إنى أساركم بالكلمة، لأنها كلمة تهمة لو نفع سرار فى صحيفة المؤيد - ولو.. بضعف نفقات العيد؟؟!

توغر منا الصدور على نزلائنا من اليونانيين، فنسلقهم بألسنة حداد، على ما أثمرت صدورهم من الحمية، وما مالئوا إخوانهم بالنفس والمال! وهل كان نزلاؤنا اليونانيون فى عهد ما، أخلق بتقريطنا منهم الآن؟ ولكن من لنا بطبيعة غير البشرية، نقرظهم بها فى الظروف الحاضرة، على استقامة شعورهم، وبذل ما وجب من الحقوق فى أموالهم وأنفسهم، بذلاً بسماح؟! أولم تكن أنفسنا هذه التى بين جنوبنا أولى بثلبنا؟ بلى؛ لأن كثيرين منا تساهلوا فى حقوق الإخاء، على حين تأكد الحاجة إلى قضاء حقوق الإخاء؟

إن قعدنا عن ممالأة العثمانيين، الذين يذبون عن حياضهم، ويخرون فى املاحم صرعى، دون شرفهم، وديارهم، أنفسهم، أفليس من الخذلان قعودنا عن إواننا العثمانيين الجرحى، وإخواننا العثمانيي المتدهورين، فى العسرة والبؤس؟! بلى؛ وإه لقبيح منا جفاء لقوم نحن أولى أهل الأرض بهم، وهذا موضع الرحمة! إنه لقبيح بنا أن نلقى بأعمالنا، فى وسط أسرنا، على مشاعر

أبنائنا، درسًا من القسوة، نفسد بمثله عليهم شعورهم، ونمسخ فيهم فطرتهم، إن أغضينا عن الجهات الأخرى!

ومن اختـانته منا عاطفـة الخير فى المصائب الملمـة، فليشعـر قلبه تلك العاطفة!! ومن لم يستطع فليقصر نفسه على عمل الرحمء، فإننا لن لم نسأل عن عواطف لم نجتليها على أنفسـنا، فلا يفوتنا السؤال فى سائر الأحوال عن أعمالنا! ألا وإن مصرع المرء فى استسلامه لكل ميل! ألا وإن حتف الفتى فى عبـادة هواه! فلنُحل الحكمـة من أنفسنا مـحل ما استـعصى علينـا من خلال الخير، والحر الكريم يرقع حقًا عليه بمال له، ولا يرقع مالاً له بحق عليه!!

لا نبت ليالى العيد فى ألم التخمة، وإخواننا فى ألم المخمصة!!

لا نبت مسـرورين بما حولنا، وإواننا محـرومين بما منوا به! لا نبت فى يسار ونعيم، وإخواننا فى عسرة وجحيم! لننفق مما أعطانا الله!!

وإن سخط علينا إحساسنا، فسـيرضى الحق! من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون!

وبعد، فهذه عشرة جنيهات، أهديها لإخوانى الجرحى، فى عيدهم هذا الأكبـر فإن ضـاق منى اليسار عن أكـثر منهـا، رجوت منى الشعـور للعطف عليهم، والتوجع لهم، والله تعالى أسأل حسن الغاية، وإليه المصير. ع.ز

(المؤيد) وقد سلم حضرة الكاتب الفـاضل، المبلغ الذى ذكره فى مقالته إلى صندوق جمعية الهلال الأحمـر. ونحن نشكر لحضرته عواطفه الشريفة، وجهاده بماله وبقلمه. أجزل الله له المثوبة والأجر.

رحمة لبقية سيف ونار!

المستشفيات العثمـانية، وبعض الدور والطرقات، ينساب عليها مطر من فوقـها، حـافلة بجرحى العـثمانيين! ضـعاف، مـوقرون بالآلام، متـكنفون بالأخطار، فى موضع غوث ورحـمة، طالما قاموا الليالى فى جـهاد الأعداء، ناصبين حذرين، لينام الناس فى راحـة وأمن! لبثوا هنالكم فى تلك المواضع، مواضع القتال، أمام العدو، ليـالى وأيامًا غير آمنين! إن رقدوا رقدوا على قلة زاد، خماص البطون، يتمـهدون الغبراء، ويلتحفون السـماء؛ وإن هبوا هبوا على قلة عدد لقتل وأسر! فهم فى حاليهم كالمستجير من الرمضاء بالنار! ظلوا كذلك، حـتى صرعتـهم نار الأعداء، فانكبـوا على وجوههم يتـخبطون فى دمائهم!

على عجلات الحرب الخشنة، لا على مـركبات الركوب الوثيرة، حمل أولئك الجرحى، بقايا السيف والنار، إلى المستـشفيات، حتى ضاقت دونهم، فـإلى بعض الدور والطرقات! ولم تبح لـهم الحرب أن يحـملوا عليهـا برفق ينبغى لمريض مـثلهم، إلا كما يرفق بالمتـاع لا يخشى عليه، ينبذ فى سـفينة! تسير بهم العجل إلى المستشفيـات على عجل، تتسلق بهم الحزون، كما تهبط بهم إلى السـهول، ونار الحـمى تتفـجر فـيهم من باطنهم، والبـرد يغشـاهم ويؤذيهم فى جروحهم، والسماء تأخذهم من فوقهم! فمنهم من تستنزف على العلجات دمـاؤهم، فتفـيض نفوسهم. ومنـهم من يبقى حيًـا؛ للتراب الذى قلبهم فيه الألم بمصارعهم، والماء الذى صبته عليهم السماء، أثرٌ فى لباسهم، وللهواء البارد أثر فى أطرافهم وجراحهم، وللنار التى صلتهم بها الأعداء، أثر

فى أجسامهم! كأنما عناصر الطبيعة التى تبدو أحيانًا، لتصرفها، كجبار قاس، تألبت على هؤلاء الجند المساكين! فما أشأم طلعة الحرب على الجيش العثمانى، وقد أخذته على غرة! وما أشأم الحرب على العالم أجمع، ما تعاقبت الأيام! قطع بهؤلاء الجرحى شقة بعيدة، تسيل منهم الدماء، وتبكى عليهم بدموعها السماء، حتى انتهوا إلى تلك المضاجع، وهنالكم أصابوا راحتهم! وأنى لمثلهم راحة، وهذه جراح كثير منهم دامية، حشوها رصاص الأعداء، لا الخرق والدواء؟! وهذه مضاجعهم، فى كثير من أمورها غير صالحة. طرحوا بعد أن فرغ منهم الأطباء، قد غاصت بهم بقية قواهم، وفاضت فيهم الآلام بين يدى الممرضين والممرضات، تحميهم من الذباب، وقد كانوا بالأمس حراس الديار، وحماة الذمار! وتجرعهم الشراب، وقد كانوا قبل ذلك يجرعون من ناوأ بلادهم، الموت الزؤام! فعطفًا أيها الأقوياء، على هؤلاء الضعفاء! حنانًا يا صحاح السلم، على مرضى الحرب!!

لو اطلعت عليهم، لرأيت الحديد والرصاص، حالفا النار على التنكيل بهم وتشويه صورهم! تتخلل مراقدهم: فهذه ذراع برزت فوق الغطاء، مشدودة فى مكان أصابع فتتها الرصاص! وذراع ثانية، مربوطة فى موضع كتف أبينت! وتلك عضر بترت ذراعها، وشدت عليها الأربطة! أو بقية قليلة من عضد! وتيك رجل انزاح عنها الغطاء، فبدت على بقيتها الأربطة! وقد ذهبت صابعها، أو قدمها، أو ساقها! وهذا جريح عليه عصابة عظيمة، شدت منه على فك منكسر! وبجانبه جريح آخر، عصبت جبهته على دهان تحتها! وثم ثالث، وضعت منه الخرق على عينين، أشرفتا على العمى! ومنهم من جمع فى موضعين من جسمه، أو مواضع، بين رباطين أو أكثر! وهم

كذلك شتى فى ضجعتهم: فمنهم راقد على جنبه الأيمن، لا تقدره جراحه أن يرقد إلا عليه! ومنهم مضطجع على جنبه الأيسر! وبعضهم مستلق على ظهره! وآخرون مسندون إلى شىء، يقطعون الليل والنهار، قعوداً لا يرقدون! هذا والآلام سارية، والأوجه منزوية، وأساريرها تشف عن ألم شديد! وأنين المرضى وتأوههم، تلين له القلوب القاسية! يستغيث بعضهم بالطبيب مما أثقلته جراحه، وبعضهم يستعين بالممرضين والممرضات، على أمر عرض فيه على رباطه، أو عصابته أو دوائه! ويحضر كثيراً منهم الموت، ونار اللهفة على ولده وأهله تحرقه؛ لولا أن الموت الذى تبرد له الأجسام، أخمد فى ذلك الهيكل كل نار، وأطفأ فيه كل حرارة! نعم، وتلك المستشفيات ينقصها الموت، وتمدها النار والسيف، كأنما هى خزائن الهلال الأحمر، ينقصها الإنفاق على هؤلاء الجرحى، ويمدها الراحمون! والراحمون يرحمهم الرحمن! ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء!

يغلب على الجريح منهم ألمه، وتسبح به الحمى فى بحر من الأوهام! فإذا هدأت فى جسمه ثائرة ذلك، ثارت فى نفسه آلام كثيرة: فألم لذهاب أمله سائر حياته - وقد قطع منه عضو أو أعضاء - وصيرورته عيالاً على غيره، بعد أن كان الناس كلهم عيالاً عليه! وإن كان من بلد استولى عليه الأعداء، أو حرقوه، أو خربوه - وما أكثر هذا فى الحرب - أقلقته الوساوس والهموم، فى أمر أهله، وما صاروا إليه! هذا إلى ما هو فيه من القلق على قومه! فأف لتصاريف الليالى ما أقساها! لقد كاتت السعادة لهذا الشقى، لو أصابت مصرعه، ثم فى ساحة الوغى، وأخذته حوافر الخيل، وتجاذبته الذئاب الكواسر، فى تلكم الفجاج المترامية! حقًا! بيد أنه أشقى من أن يموت!!

عاش هذا الجريح الشقى قبل اليـوم، برهة من الزمان، فى غبطة، ممتعًا بقواه، مُعـافى فى بدنه، آمنًا فى سربه، قرير عـينه بماله وولده، وجفن الدهر عنه غـضيـض. ثم تقلصت عنه فى لحظة واحـدة، ظلال تلك النعم، كـأنما كانـت مصابـيح شتى من الكهـرباء، توقد من زر واحـد، فلوته بسرعـة يد الدهر، التى تلوى كل شىء مسته، فاحتجب عنه ضوءها الساطع، وتركه فى ظلمة أسـود من حلك الغراب، يظل نهـاره يهذى بأهله وقـومه، ولا سيـما جريح الأمس، قبل أن تبـدو تباشير الأمل؛ وإذا خر علـيه الليل، بات يهذى بجرحه، وإذا فتر عنه لحظة ألم هذا وذاك، صار يهذى بتصرم أمله!!

فحنانًا وعطفًا، أيها الرحماء، على هذا الجندى الجريح، المتصل الآلام، المنقطع الآمال! فإنه بقية عسكر مـاتوا لحياتكم، أو حياة إخوانهم وإخوانكم، ومثله خليق بإنسانيتكم وثمرات رحمتكم!!

إنى لا أجـد فى الجمـاعات أحـدًا أجدر بمؤازرتهم، من جندى جـريح فيهم! لأنه إن يكن قد وقع عليه الاختيار قسرًا من بين الجماعة للقتال دونهم، فهو من لبـاسه، فى قميص عثـمان ملطخًا بدمه! وإن كـان متطوعًا، بذل دم لقومه، فهو شريف مـحسن! ومن ذا الذى هو أولى بمعونة قومه، من رجل: إما مظلوم مضرج بدمه، وإما شريف محسن به إليهم؟! أما إذا كانت الجماعة أكرهتـه على الجهاد دونهم بحق، فهـو امرؤ قد احتـمل واجبً خطيرًا، نيط أداؤه بسفك دمه، وقد سفكه!

عطفًا، أيها المصريون، على هذا الجندى المسكين! فقـد فاجأ الأعداء فيه أهله الأدنين، على غرة فى أمـره، فلم يجدوا بدًا من تقديمه، على غـير أهبة كاملة، لسفك دمه! وهذا مبلغ ما يستطيع أُباة، فاتهم، لبعض الدواعى، أخذ

الأهبة لأعـدائهم كل الأخـذ! قتله الجـوع فى الحرب مرة، وقـتله البـرد مرة أخرى، وقـتلته نار الأعداء مـرة ثالثة! ولكنه بعـد هذه القتلات غـلبت عليه شقـوته، فبقى فيـه رمق يذوق به العذاب، فأبقـوا على رمقه! أمـسكوا عليه حـياته، بمده بالمال، فـأنتم عـثمـانيون، أو لا، فـأنتم أولى الناس بجـرحى العثمانيين، الذين تشغلهم الحرب عن كل شىء!

ماذا يكون حال هذا المسكين، إذا لم توالوا مده بالمال، فـيجد له غذاء، ووطاء، وغطاء، فى برد هنالك قارس، وطبيبًا يضـمد جراحه، وممرضًا يعينه على شئون عليل مثله؟! أصبح يسألـكم بلسان حاله، أن تعيروه من قوتكم، بعد أن كـان يمدكم أنتم وإخوانكم بقـوته، والدهر بالناس قُلَّب! على أن فى العطف على الجندى العـثمانى، وتضمـيد جراحـه وسلامته، طاعـة لأمر الله فيه، وصلة لإخوانكم، وخـيرًا كثيرًا لكم ولأعقابكم! قـدموا لهؤلاء الجرحى دريهمـات! قولوا لهم بهـا: إن أمتكم، ولا ننكر أننا منهـا، كلا أو بعـضًا، شاكرة لأفرادها، الذين يريقون دماءهم فى سبيل سعادتها، عاطفة عليهم!

قدموا للجـرحى من أموالكم! قولوا بها: إن جمعنا على أهبـة لبذل ما يملك، فى معونة العاملين لصلاحه، لا نضيع عمل عامل منكم!

قـدموا للجـرحى من أمـوالكم! قـولوا بها: إن مـثلنا، فى تراحـمنا، وتوادنا، وتعاطفنـا، كمثل الجـسد، إذا اشتكى عـضو تداعى له سائر جـسده بالسهر والحمى!

قدموا للجـرحى قليلاً من أموالكم! قولوا بها للعثـمانيين: نحن إخوان الشدة، كـما كنا إخوان الرخاء! وشـدوا أزرهم، وقووا عزائمـهم، وعزوهم على ما خسروا من رجالهم، ولا يذهب العرف بين الله والناس!

قدموا للجرحى، يشيد المصرى بهذا التقديم، فى بناء التراحم والتعاون، وجامعة الحياة، وحياة الجامعة!

قدموا أيها الموفرون، فى قوتهم، وأعضائهم، وأهليهم، وأموالهم، لمن فاتهم جميع ذلك!

قدموا قبل ألا تقـدموا! وما تقدموا لأنفسكم مـن خير، تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا!

وهذه عشرة جنيهات، مقدمة للجرحى، جمعت لهم أيام العيد، وليس لى فيـها إلا نحو خمـسة وثلاثين قرشًـا! منها نحو مـائة وثلاثين، تكرم بها المصلون فى جامع لاشـين السيفى، بشـارع مراسينه بالسـيدة، بعد أن حـثهم حضرة خطيبـهم الفاضل، الشيخ محمد أحمـد أبو طالب، وجنيه سلمه إلى حضرة الفاضل، الشيخ أحمد إبراهيم، مـأذون الشرع الشريف هناك، قيمة ما جاد به بعض أهل الخـير من تلك الجهة. وسـائرها دفعهـا إلى بعض أقربائى وإخوانى. شكر الله لهم أجمعين.

ع . ز

(المؤيد) وقد سلم حضرة الفاضل، كاتب الرسالة، المبلغ الذى أشار إليه فى رسالته، إلى صندوق جمـعية الهلال الأحمر. شكر الله سـعيه. والساعى إلى الخير كفاعله.

عطفًا أيها الأطباء!

ليس فى الحياة أشق من ألم جثمانى شديد! قضية يلفظها السمع، ولكنها فيما أظن صادقة! فألم النار أشد من كل ألم نفسى! والمرء على احتمال الأول، أضعف منه على احتمال الثانى! ولا سعادة يشعر بها الحى، أعظم من دفع هذه الآلام! ودفعها من عمل الأطباء الذى يؤدونه للاجتماع البشرى. فللأطباء، على الناس، فى سعادتهم، أياد بيضاء، يبذلونها بثمن بخس. والمريض لو لم يجد طبيبًا إلا بجميع ماله لبذله له، وعد نفسه من بعد، سعيدًا ممتعًا بعيشه. وإلا فمن يشعر بشىء من سعادة، إذا كان بين خزائن الأموال، ولكنه مثقل بالأمراض، منغص بآلام، إلا من كان فى إحساسه غريبًا من الناس؟! وعلى الجملة، ليس فى المعاوضات صفقة، أنفس مبيعًا، وأقل ثمنًا، من صفقة تجرى بين طبيب ومريض وإلا فلا أقل من أن صفقة الطبيب مع المريض، تحسب بين تلك الصفقات.

هل أدلكم أيها الأطباء المصريون، على عمل حاضر، يضاعف لكم فى الأجر، أضعافًا مضاعفة؟؟

هل أدلكم على عمل حاضر، تطلقون به ألسنة قومكم بشكركم، وإن كانوا يحفظون لكم الجميل من قبل؟

هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، يوم الدين، وتسير بكم شوطًا بعيدًا فى سبيل الرقى، والسعادة الأبدية؟!

تلبون نداء الهلال الأحمر، ويرحل جماعة منكم، كما نفر بعضكم من

قبل، إلى الاستانة، فى أداء واجب عليكم، وعلى أمتكم لإخوانكم العثمانيين، موفين أجوركم الجزيلة من الله تعالى.

يا حضرات الأطباء! أحقًا تقعدون عن واجب أخوى، أُلقى على كاهل كل منكم، كما ألقى على كاهل أمتكم، من حيث إنكم جزء من أمتكم، حتى احتاجت جمعية الهلال الأحمر، أن تستفزكم بالقول، إلى هذا الواجب؟!

إنكم لتعلمون أن فى رحلتكم إلى الاستانة، فى مداواة الجرحى والمصابين، برًا بأنفسكم؛ وبرًا بجمعية الهلال الأحمر، القائمة بعمل من أشرف الأعمال الإنسانية؛ وبرًا بأمتكم، التى بعض واجبها رحلتكم؛ وبرًا بالعثمانيين إخوانكم؛ وبرًا بالإنسانية! فحق عليكم إجابة هذه الدواعى كلها، إذا لم يكن ثَمَّ ما يمنعكم!

يا حضرات الأطباء! إن المريض المعذب هنالكم، يتململ على فراش الألم، ويساوره الموت، لهو أخوكم! وإن النساء التى استهدفن الشقاء، لهن أخواتكم، والأطفال الذين تفترسهم المنية نائين عن آباء جرحى، أو قتلى، أو أسرى، وفى حجور أمهات، بائسات، مهاجرات، من ديارهن وأموالهن، أبناؤكم وبناتكم! فحنانًا لهؤلاء ورحمة! إن لم يسر إلى أسماعكم صريخ هؤلاء الذين يكبكبون فى نار الآلام الشديدة - وهل النار إلا الآلام الشديدة - فقد ملأ السمع من طرق شتى ما هم فيه!

أليس مثلكم، إن لم تجيبوا نداء الهلال الأحمر، كمثل ملاح هوت أسرته فى غدير وهو على شفا الغدير؛ يستغيثون به مما هم فيه، ويمدون إليه أيديهم، ليأخذ بها، وهو يلوى عنهم، حتى هلكوا على مشهد منه؟! نعم

كمثل ملاح، لأنه لا يعسر على الملاح أن يسبح فى غدير، كما لا يضركم أن تباشروا عملكم فى الاستانة، بعيدًا عن مواقع الحرب! بيد أن الجرحى والمصابين الذين تُدعون لإغاثتهم، يطول عذابهم إن لم تغيثوهم! أما أسرة الملاح فتزهق أرواحهم فى الغدير بسرعة.

يا حضرات الأطباء! إن الإنسان الشفيق، لا يألوا جهدًا أن يلتقط من الماء حيوانًا أشرف على الغرق! أفلا ترثون أنتم لإخوانكم وأبنائكم؟!

إنى أسائلكم، بإنسانيتكم، إلا ما أيقظتم فى قلوبكم عوامل الحنان، التى ثارت فى فؤاد ذلك الزارع الألمانى، فأنجى أسرة فقيرة، أشرفت على الغرق!!

ففى ذات سنة، فى فصل الربيع، فاض نهر (اتسن) حتى هدم القناطر، وغطى كثيرًا من الأراضى. وكان فى بعض جهات النهر قنطرة عتيقة، فى أحد جانبيها كوخ مكاس، فذهب بها الفيضان، ولم يبق منها إلا ذلك الجانب، وفوقه الكوخ، والماء يلح عليهما، ويتهددهما كل لحظة، بالتهامهما. فوقف أهل الكوخ وسط الماء، فى بهرة الموت، يستغيثون، والناس على الشاطئ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً؛ حتى الملاحون خافوا على أنفسهم، أن يلقوا بها فى ذلك التيار الجارف. ولم يغن شيئًا أن كان بين الواقفين عظيم من أهل اليسار يسوق الناس بالمال الجزيل، لإغاثة هؤلاء المنكوبين. وإنهم كذلك، إذا بزارع من عرض البر مقبل عليهم. فلما رأى ما فيه الناس، لم ينشب أن رمى بنفسه فى زورق واقتحم به اللجة، وسار به يساور التيار، ويشق الجمد، حتى بلغ الكوخ، بمعونة الله، فاستل أسرة المكاس من الخطر، وأنزلها فى الزورق، ورجع بها إلى الشاطئ بسلام. فلهج

الشاطئ كله بحمد ذلك الفلاح المقدام، ولم يكن إلا أن وضع بهم قدمه على الساحل، حتى انهار ركن القنطرة، وهوى الكوخ فى الماء.

هذا وقد مد ذلك الموسر العظيم يده إلى الزارع، بكيس مفعم بالنضار، قائلاً له: خذ هذا المال مكافأة لك. فقال له الفلاح: معذرة يا سيدى! إننى لم أعرض حياتى للخطر طمعًا فى مال! وإذا أراد سيدى إكرامى بشىء منه، فليبذله للمكاس، فقد أتى الماء على ماله. وأخذ على طريقه، ولم يعقب لسماع كلمة شكر!

كونوا أيها الأطباء الكرام، مظهرًا لرحمة الله بأولئك العثمانيين، الجرحى والمصابين، ورسلاً من الرحمن الرحيم، لتخليصهم مما هم فيه!

كونوا رسل الإنسانية، وأخص صفات الإنسانية الرحمة!

كونوا نواب قومكم المصريين، فى معونة العثمانيات والعثمانيين، واسعوا جهدكم فى خلاصهم من هذه الشدة!

يا حضرات الأطباء! هذه أمتكم نهض موسروها نهضة يشكرون عليها، فى شفاء الحاجة من جسم الأمة العثمانية، وإن كانت الآمال لم تزل بعد منوطة بزيادة نهضتهم! فهل لأطبائنا الكرام، أن ينهضوا، جهدهم، فى شفاء المرض من جسمها؟! وإلا فيا ليت شعرى: ما عسى يفيد الدواء الحاضر، والطبيب غائب، وقد صارت النوبة فى نهضة الأمة على معارفكم؟!

أيها الأطباء المحترمون! إن لم يجر على يد أمتكم إرسال جند منها إلى تركية، ليشتركوا فى إراقة الدماء البشرية، التى دفعت، على قسر، إليها - والضرورات تبيح المحظورات - لم يفتها برحلتهم مد العثمانيين منكم بجيش،

لإرقاء الدماء، وتأييد السلام! أليس مثل طـبيب لا يسافر على قدرة لغوثهم، كمـثل ملىء يمسك فى هذا الوقت ماله، لا يرعى فـى ماله حق الله ولا حق الناس، ولا يحقق فى شخـصه رجاء قومه؟! أليس مثل الأمـة فى أمر معونة الدولة العثـمانيـة، إن قعدتم عن مـشاركتـها، وبكم خـصوصًا مناط حـاجة إخوانكم العـثمانيين من وجه، كـآلة بخارية بلا وقود؟! أو كمـدرس ضعيف الذكر، قدم لدرس بلا مذكـرات؟! أو عين ذهب لاستطلاع جيش بلا عين؟! أو كرجل أراد ممالأة آخر على كتابة شىء، فدحست أصابعه أو رمدت عينه؟! غير أن الفـرق بين عين رمدت، وطبيب تخلف عن السفـر، عظيم جدًا! أما العين فترمد قسـرًا، وأما الطبيب فرمد اختيارًا! هذا إذا قـعدتم عن السفر بلا عذر، وما أخالكم!

لبـوا، يا حضـرات أطبائنا، نداء الهـلال الأحمـر، تنالوا بذلكم، أنتم وأعقـابكم، فخـرًا! ولأن يرث أعقاب الأطبـاء مذكرات لهـم، فيهـا حديث رحلتهم إلى الديار العثمانية، لمعـالجة إخوانهم، وقت الحرب والوباء، خير مما يجمعـون! ولا سيما من كانت رحلتـهم مجانًا! وما يبقـى من الثناء الجميل، والمنزلة العلية، خير من ذلك، وما عند الله خير وأبقى!

يا حضرات الأطبـاء! إن الطبقات الأخرى، إذا عرضت لجمـعية الهلال حاجة لديهم، بادروا إلى أدائها بلا أجـر، إلا ما يرجونه من الله تعالى؟ ذلك بأنهم يعلمون أن هذه الجـمعية - ولها من القلوب مكانـة، ومن الألسنة حمد - إنما تعمل ناصبة، فى طاعة الله وحب الخـير! أتقعدون - بلا عذر - وأنتم من علية القوم وبكم أنتم يناط عـملها، عن مـؤازرتها فى مـعالجـة الجرحى والمرضى، من إخوانكم، لايظن قعودكم بلا سبب صحيح!

هل على حضرات الأطباء من حرج، إذا اجتمعوا وتشاوروا فى أمر سفرهم، وجعلوا الرحلة مناوبة فيما بينهم، حتى ينتهى أمد الحاجة؟ والله تعالى يكشف قريبًا عن الديار العثمانية، تلك الظلمات المتراكمة فى جوها، ويرجع به إلى الصفاء!

لا يخلدنكم إلى مصر بعيدًا عن هذا الواجب، أن يقال: كيف تسافرون إلى بلاد الحرب، ولا تعلق ولد بكم، ولا بكاء أهل، وإن كانت هذه الأمور من شأنها أن تخلد، فمن الحزم أن يكون المرء ماضيًا فى سبيل الواجب!

عبد الملك بن مروان، لما أراد السفر للغزو بنفسه، تضرعت إليه زوجته عتكة، بنت يزيد، تسأله البقاء، وقد كانت حظية عنده. فلما أبى عليها، وعزم على السفر، بكت وبكى معها جواريها، فتمثل بقول ابن أبى ربيعة:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه　　حصان، عليها نظم در يزينها

نهته فلما لم تر النهى عاقه،　　بكت، فبكى مما دهاها قطينها

سافروا تغنموا.

ع. ز

وأضع مع كلماتى هذه مائة وخمسين قرشًا فى صندوق الهلال الأحمر، جاد بها على المرضى، بعض الأخيار، أجزل الله لهم المثوبة.

هل للمهاجرين من أنصار؟!

كأنى بالبلاد العثمانية، التى استولى عليها الأعداء، وأحلوا لأنفسهم، من أعراضها ودمائها وأقدامها، ما لا يحل؛ والتى باتت تتوقع غارتهم، والتى دمرتها نارهم - وهى كثيرة - غادرها أهلها مسرعين! وخرجوا منها خائفين مترقبين! يسيرون عنها خطوة! ويعطفون عليها بنظرة فنظرة! ولولا خوفهم طلعة العدو عليهم، لوقفوا بالأطلال كثيرًا؛ حتى نقعوا بالوداع غليلاً!

وكيف لا يقفون طويلاً، لتوديع تلك الديار، وهو آخر العقد بمعاهد ألفوها؟ وبلاد اختطوها؟ انتظم بها شملهم، وغنى أترابهم، وأقام أصحابهم، واتصلت أنسابهم ونبت خالفهم وحُصد سالفهم؟! أليست سلامة هذه المعانى، فى سلامة المغانى! أجسامهم عجينة من تربتها ومائها، وأمزجتهم مثواة بحرها وبردها وهوائها، فلو رد الله التراب هنالك رجالاً لجاءوا على شكلهم! أمهم واحدة، وهى هذه الأرض التى يكرهون على الهجرة منها، وأبوهم واحد، وهو ماء أنهارها وغدرانها! فأين يجد أحدهم من بلده بدلا، وقد بدد الدهر شملهم، وفرط عقدهم، ورمى بكل خرزة فى مكان؟! رفقًا أيها الدهر العنيف، بالمهاجر الضعيف، فكبيره، من قبل، بين يديك صغير، وعظيمه حقير، وعزيزه ذليل، ورفيعه وضيع، والقدرة تذهب الحفيظة!!

كيف لا تقف الأسرة لتذراف الشئون، وقد رزئت فى مقرها الذى شادته؟ دمرت النار دارها التى بنتها، وشيدتها ونجدتها، وارتبط بكل بقعة منها حديث من تاريخها، وذكرى من ماضى آبائها وأجدادها، ونيط بكل مكان منها أمل لمستقبلها؛ حتى كأنما هى الدار صحف لتاريخ الأسرة،

ومجموع آمال؟! دمـرتها فأصبح عاليها سافلها، وأحـالتها إلى جدث عظيم، انبسط على غير نظام، وقام على غير هندام، توارت فيه تلك الآمال الكثيرة، وغابت الصحف!

كيف لا يـودعون أوطانهم، مـا استطاعـوا؟ وهذه أرضهم وعـقارهم، ومزارعهم وجناتهـم، وهذا طريفهم وتليدهم، وما عملت أيـديهم لهرمهم، وعقبـهم من بعدهم؟! قد سلط عليهم فـيه عدوان قاسيـان: فعدو من النار، وعدو من البلغـار؟ انتزعوا منهم مـا حازت أيديهم، وأجلوهم عنه بسـرعة، ولم يسمح لهم بموقف وداع، يرخون فيه للعـبرات أعنتها، لعل انحدار الدمع يعقب راحة!

بل كيف لا يقفون، ما استطاعـوا، موقف العبرات، أو تذهب أنفسهم حسرات؟! وهؤلاء كثيرون مـن أبنائهم وإخوتهم وإخوانهم، الذين وقعوا فى الدفاع عـنهم، تركوا طعـمة للنار، تحت دورهم المتـهدمة - ويالله كـم عزيز عليـهم غـاب فى تلك الأنقـاض - وآخـرون منهم، تركـوا طعـامـا للذئب والطير؟!

غادر هؤلاء المهاجرون أوطانهم، تحـمل منهم الأرض محزونين، لو أن جمادًا رئى لإنسان قبلهم على كثرة هم، لرثت لهم تلك الفلوات! سروا تحت الليل، يروعهم الفزع، فعل مهاجرين يتـأثرهم عدو، موقرون بأسباب المنية، غرثى إلا من بغض العثمانى وحب الانتقام.

احتثهم الليل فاحتثوا، وحدا بهم الفرار فجدوا. مهلا أيها الحادى بشيخ كـبيـر، وطفل صغـير! ورفـقًا بالقـوارير! لمست منهم الأرض الغليظة قـدم المخـدرات، وأقلت سادة كـانت تقلهم العـربات، وسـاخت فى الطين أرجل

كانت تسوخ فى فرش وثير، من سندس وحـرير! ينال منهم الجهد، كما ينال منهم البرد، فتـرعش أجسامهم، وتحمر أنوفـهم وآذانهم، وتألم أيديهم حتى يذهب حـسهـا، ويبطل أو يكاد عـملهـا! يعثـرون فى الليل فـينكبـون على وجوههم، فينهض الصبـى من عثرته، باكيًا يخافت بصوته، وقـد علّمته أمه ألا يرفع صوته بالبكاء، كى لا يسمع الأعداء! فتتناوله بـيد مرتعشة، وتضمه منها إلى صدر محشو بأنواع الهمـوم، وتنسكب دموعها فوقه تحنانًا عليه! فلو أحس مـقرور فلاة بـدفء لدمع غزير ينسـاب عليه، لذهب عن الصـبى ألم البرد! كـان بعض هؤلاء المهاجرين بعـد نصب شديد، أخلدوا إلى الأرض لا يستطيعون مضيـا. فمنهم من أثقله البرد، ومنهم من تورمت قدماه، بل منهم من انتهى به ذلك إلى مرض شديد، والمرض يأتى بلا رعاية حال، كزائر قليل الذوق يلم فى غيـر وقت! يهلك بعض هؤلاء، ويحيـا بعض آخر، بما يرسل الله إليه من رحمة، لا يتسرب إلى طرقها خيال ولا تحيط بها تجربة!

تفرق هؤلاء المـهاجرون فى غـاياتهم فرقـا شتى، وبعـضهم قـصد إلى السفن، يؤمـون بلادًا ثانية، وقصـد بعضهم إلى الاسـتانة وغيـرها من البلاد العثمانية، فانتشروا بها فى مواضع شتى.

قصدوا إلى السفن، وليسوا بسـياح، لا ولا لإيلافهم رحلة الشتاء، بل فراراً من الشقاء، الذى أصـيبوا به فى مواطنهم! شرى كثيـر منهم مقاعد فى الدرجة الثـالثة، وكـانوا يغمـضون فى شراء هذه المقـاعد لتـبعهـم! وجلسوا بالأرض بجانب الطريق، على مقربة من آلة البخـار، وقبل اليوم كانوا يتكئون على الأرائك، وتضـرب دونهم الأستار! يمر بـينهم الملاحون وخـدم السفن، وفيهم مخدرات، لم يكن يُسألن إلا من وراء حـجاب! ترى السيد والسيدة –

تعـرف فى وجـوههم نضرة الـنعيم – مع سـواد الناس فى مـجلس واحـد، فتخالـهم – لولا أنهم عثمانيون لا عرب – بقـايا من أمراء الإسلام الأولين، جالـسين إلى العامـة! أو تحسـبهم سادة مـتواضـعين، جاءوا من درجـاتهم، وجلسوا فى بعض الشئون مع أتبـاعهم! وما هى جلسة تواضع، ولكنه الدهر الذى لا يتعاصى عليه وضع رفيع، حطهم! بدت الفاقـة فى كثير منهم، فقام بعضهم يسأل أجرة لبقية طريقه، وآخرون يسألون حاجات أخر! لا تلحفن فى المسألة أيها المظلوم الظالم! فأكثر من تلتمس معونتهم، فى حاجة إلى المعاونة! ولولا اعتصامـهم بالحياء، وشعورهم أن المسألة أخف مواقف العـبد، لتصدوا للسؤال كما تصديت!!

وجاء منهم عـدد لا يحصى إلى الاسـتانة وغيـرها، من المدن والقرى، يتلمسون ناصراً من الإنسان! لا يقصدون مسـمى معينًا، ولا يتطلبون شخصًا خاصًا! وجهـتهم الإنسان الرحيم، عثمـانيًا أو غير عثمـانى، يساعدهم على تصريف الأيام!

امتـلأ بهم المساجـد، يعكفون عليـها الليل والنهـار، لا يفارقـونها إلا لحاجاتـهم، وما هم بمعتكفين! صوام لا يطعـمون يومهم، وليسـوا بصائمين! تتجافى جنوبهـم عن المضاجع؛ ذلك بأن فرشهم وأغطيتـهم قليلة، على شدة البرد! وأجـوافهم خـالية من ألوان الطعـام، ممتلئة من ألوان الشـقاء! ودوا لو كانت همومهم الكثـيرة أزوادًا وفرشًا وأغطية، كما يـودون لو كانت أغطيتهم وفرشهم وأزوادهم القليلة هموما!!

وامتلأ بهم التكايا، وما هم من الناس بطلاب عرف، فتجهم لهم بعض قُطانها، وتبرموا بهم! ويا ليت شعرى: هل يجدون فى التكايا راحة، بعد أن

كانوا فى سعة كقطع الشطرنج على رقعتـه، فأصبحوا بازدحام التكايا، كتلك القطع قد طويت وجمعت فى الصندوق؟ فوارحمتا للمهاجرين!!

بلغت بهم الحاجة إلى بعض البيوت؛ فأما الأخيار من أصحابها فأكرموا وفادة من وسع رحابهم، وأمـا القساة فضنوا بقرى أو مـبيت، أو كلمة لينة، واستوثقوا من رتاج الباب والدار!

بقى منهم بعـد ذلك فى المدن والقرى خلق كـثير، ليس لهـم ملجأ إلا ساحـاتها، وإلا طرقـها؛ فاسـتولى عليهم الجـوع والبرد، وعـدم الراحة فى شىء، فانتشرت فيهم المراض، وفتك بهم الوباء! فكأنى بالشوارع لا ترقأ فيها دموع الحزن، ولا زفـرات البرد، ولا ضيق الحاجة! أسـمع من تلك الشوارع والساحات - لو سمع منها من بمصر - صراخ وليدة من الجوع، أو صبى من البرد، فتحنو عليـه أمه، وتخلع لها ملابسها القليلة، ثوبا تلفـفه به، وتضمه إلى صدر محزون، فـيشتد البرد على هذه الأم الرحيمـة، فتمرض أو تموت، والصبى فى حـضنها، ويدها قابضـة عليه! أرى بناظر من الخـبر، وناظر من الخـيال، شـوارع الاستـانة، وبعض البلاد العـثمـانية، كـثرت فـيهـا الجنائز والنعوش، تحمل آباء وأمهات، تركوا من خـلفهم ذرية ضعفاء، غرباء، ليس لهم من يكفلهـم! تلك الشوارع والـساحـات - وهى اليـوم مـهبط لأحـزان الإنسان ومتنزل لضروب شقائه - إذا جن ليلها، جن من المهاجرين، على آباء مـحـزونين، وصبيـة يتـضـورون من الجوع، ويألمـون من البرد، وأمـهـات موجعات، باكيات بائسات، يائسـات إلا من رحمة يثيرها الله فى قلب امرئ خـيّـر! أتجد تـلك الأمهـات المحـزونات، اللاتى كـثيـر منهن مـرضى فى المستشفيات، أنصارًا لهن فينا؟!

هل يجدون فى مصر، كتابًا خيرين، إن لم يكن بأيديهم مال ينصرونهن به، فإن بها أقلامًا يثيرون بها عواطف المحسنين؟!

هل يجدنمعلمين، يحرصون على أن يكون من قلوبهم قُدى لقلوب تلاميذهم، كما أن ألسنتهم قُدى لألسنتهم، فينصروهن بفضل ما فى أيديهم ثم يحضوا تلاميذهم، على مثل ما فعلوا؟! يحسنون بذلك إليهن، وإلى صبيتهن، كما يحسنون إلى أبناء الأمة، وقد تصدوا لتربية أبناء الأمة! وكما يحسنون إلى أنفسهم قبل إحسانهم إلى كل أحد؟!

هل يجدن من العلماء ووعاظ الأوقاف - وعليهم إسماع الناس صوت الدين الرهيب فى الحث على الرحمة - أنصارًا لهن، يعنون حق العناية بأمرهن، ويأخذون على أنفسهم العمل لهن بجد؟!

هل يجدن فى طبقات الرؤساء على اختلافهم، أجوادًا يمدونهم، ويأمرون مرءوسيهم بالمعروف فى حقهن؟!

هل يجدن فى شبابنا نخوة - والمرجو فى شبابنا النخوة - فيعينوهن بجزء وافر فى أيديهم؟!

هل يجدن موسرين، يغضون عن بعض يسارهم لهن، يقرضون الله قرضًا حسنًا؟ و«من ذا لذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة؟!».

هل يجدن من أولى الحفلات الشائقة لموتاهم - والموتى أغنى خلق الله عن الحفلات - أنصارًا لهن، يخفضون من حفلاتهم، بعض ما نصبوا، ويقدمون ثمن المخفوض لهن؟ ذلك خير وأعظم أجرًا! وإن رأوا أن يعلنوا فى

الصحف ما فعلوا، كانوا قدوة حسنة لغيرهم، ومن سن سنة حسنة فله أجرها!

عطفًا، يا سكان العاليات من القصور، على هؤلاء اللاتى أشرفن هن وصبيتهن على القبور!

عطفًا، يأيها الذى يقطع ليله القصير، فى نوم السبات، غائصًا فى الفرش اللينة، قد ضربت من دونها الأستار والكلل، على هؤلاء اللاتى يقطعن ليلهن الطويل، منبوذات بأولادهن فى العراء، ساهرات باكيات منتحبات!!

عطفًا، أيها الموسر، الذى حيزت له الدنيا بما فيها، ففتنته عن مستقبل لا آخر له! أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك! لا يصدنك إحسان الغنى إليك، بالجزيل، عن إحسانك إلى الفقير بالقليل! اتعظ بغيرك، ولا تعرض نفسك لأن يتعظ بك غيرك!

عطفًا أيها الأباء، الذين يعجبهم ما فيه أبناؤهم وبناتهم من آثار الصحة والنعمة، على هؤلاء اللائى يوجعهن ما فيه أبناؤهن وبناتهن، من آثار السقم والابتلاء! جودوا باليسير من فضول نعمكم الكثيرة! ذلكم أقر لكم عينًا، بأولادكم فى مستقبل كأيام هذه المهاجرات، مظلم!

عطفًا، أيها الذى لا يكفيه لدفء الليالى فى برد مصر القليل، ما يواريه من رياش فاخر، وما فوقه من غطاء حرير، وما تحته من مهاد وطىء، وما وراء ذلك من غرفة كثيرة المصابيح، مقفلة النوافذ، مرسلة السجوف، وما وراءها من بنيان مشيد، حتى أمر فتوقد مدفأة! عطفًا! عطفًا! على هؤلاء وبناتهن، ، اللواتى فى برد تركية القارس، ولا ثياب، ولا وطاء، ولا غطاء،

ولا غرفة، ولا بناء، ولا مدفأة! وجملة ما هن فيه: أرض جافية رطبة، وقر الشتاء، ولباس خليع من المحسنين، والله يتولى المحسنين!

أحسنوا، أيها الأغنياء، بقضول أموالكم، وأحسنوا، أيها الفقراء، ما استطعتم، واتقوا النار ولو بشق تمرة!

وأنفقوا فى سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين!

ع . ز

وقد دفعت إلى بعض الجهات جنيهين اثنين للمهاجرين، ولو جاز إمساك صلة لحقارتها، لأمسكت جنيهى. لكننى أرجو، أن يعصم الله بهما من الهلاك ولو نفسًا واحدة؛ فأدركوا المهاجرين حتى يدركها واسعوا الثروة من حضراتكم، واسعوا فى أخواتكم وإخوانكم، لتسكين آلام الناس ما استطعتم. بارك الله فيكم.

ع . ز

ومما ترجمه الأستاذ عن الألمانية:

وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم!

فى سنة ١٨٣٣ أراد شاب أن يسافر من أحد الثغور إلى أمريقا. فذهب إلى الميناء، فوافق سفينة مهيأة للسفر، ولكنها تنتظر ريثما تطيب الريح. فاكترى له موضعًا فيها، ونقد الكراء، ولبث فى الثغر ينتظر. وفى ذات يوم جاءه أن الريح صلحت، وأن ربان السفينة سيقلع اليوم فى منتهى الساعة الخامسة. فلما دقت الساعة أربعا، جعل طريقه إلى الميناء، قائلاً فى نفسه: (من ليس لك عليه حق الانتظار فانتظره. المسافر ينتظر القطار، والقطار لا ينتظر المسافر) وسار حتى بدت له السفينة، آخذة أهبة السفر، رافعة أعلامها، باسطة قلاعها، ناشرة حبالها، وصارت منه بحيث يسمع صياحه من فيها. فالتفت فرأى بجانب الطريق حديقة صغيرة، بين نباتها واحدة رباعية الورق، هى فى زعمه فأل حسن، وآية على سعادة الطريق؛ فعدل إليها فقطفها. فانقض عليه جندى، كان يذهب ويجىء، أمام مخفر بجانب الحديقة، بندقته على كتفه؛ وندبه إلى المخفر. فقال له: وما شأنى فيه؟ فقال: اقرأ، وأشار إلى لوح معلق فى مدخل الحديقة. فرفع الشاب بصره فإذا هذه الجملة: (يعاقب بغرامة قدرها كذا درهما كل من قطع من نبات الحديقة). فقال: مالى وللوح؟ أنا ذاهب إلى السفينة التى تسافر الآن إلى أمريقا. فقال الجندى: مالى وللسفينة؟ عليك أن تسير معى إلى المخفر، ومنه تذهب مع بعض الجند، إلى حكومة البلد، حيث تدفع الجزاء. قال المسافر: يا أخى! فى أقل من ساعة تسافر السفينة، التى استأجرت فيها موضعًا، ودفعت الأجرة،

فأسألك ألا تكون عقبة فى طريقى! قال الجندى: لا شأن لى فيما تقول. وأخذ بتلابيبه. فقال له: مهلا وتَرو فى الأمر! إنه مما لا يصح فى عقل، أن القانون يريد أن يقطع على مسافر طريقًا بعيدًا كطريقى، ويخسره أجرًا كالذى نقدته، فى نباتة فذة، قطفها بدون أن يعرف من أمر قطفها شيئًا! فقال الجندى: حاول ما شئت، ثم لا تجد منى غير مطيع للأوامر! ولما جرب الشاب ضروب الملاينة والمخاشنة، والتهديد والمحاسنة، فلم يفلح، سار إلى المخفر، فحكومة البلد، ودفع الغرامة، وعاد يعدو إلى الميناء، والعرق يسيل منه، والنصب قد أخذ فيه كل مأخذ؛ ولكنه ألفى السفينة قد فرقت المرسى، وتوسطت اللجة! فأخذ يندب حظه، ويسب الجندى والمخفر، ويسخط على الحديقة وألوان النبات، من ثنائى وثلاثى ورباعى! وأقام فى ذلك البلد، يتحين سفر مركب آخر إلى أمريقا. وفى بعض الأيام، قصد مطعمًا، فوقعت يده هناك على صحيفة فيها فصل من أمور الجو، وحوادث السفن، وإذا سفينته التى كان يحاول السفر فيها، قد ابتلعها البحر، ولم ينج من ركابها أحد. هنالك أدركه الحياء، لسخطه على القضاء، وعلم أن الله تعالى يرسل رحمته إلى عباده، فى صور يسخطهم عليها جهلهم. فعول على تلقى الأقدار بالشكر والسكينة، وإن جرت ريحه بما لا تهوى السفينة.

***

المريضة وولى العهد

كان بين زوار مدينة كرلسباد، ذات الحمامات الشهيرة سنة ١٨٦٥، زائر كريم، تحفه المهابة ويعلوه الوقار. وبينما هو يمشى فى أرجائها يتفرج، إذا بأحد أمسك ثيابه. فالتفت فرأى جارية صغيرة، شاحبة اللون، تسأله صدقة؛ فقال لها من ساقك إلى المسألة؟ فقالت: أمى المريضة. فقال: وأين أبوك؟ قالت: مات وخلانا للجوع. ثم انتحبت. فقال لها: أوصلينى إلى حيث تقيم أمك! فسارت وهو يتبعها، حتى وقفت على منزل صغير حقير، يريد أن ينقض، وأومأت إليه فدخل. وعرجا فى سلم لم يهدأ له أطيط، حتى انتهيا إلى غرفة فوق السطح، فأشارت إليه، فدخل. فإذا حجرة حشوها الظلمة والشقاء، وإذا امرأة فى زاوية منها، فراشها الحشيش والخرق البالية، قد نهكها المرض، وبان فيها الذل، وعلى كفيها رضيع، وبين يديها مائدة قد أكل عليها الدهر وشرب، وكرسيان مكسوران، وإناء من الفخار، هذا كل أثاثها. فلما أحست بالزائر، نهضت على توجع منها وشكوى. ثم قالت له: معذرة أيها الطبيب! حقًا لقد أساءت إليك ابنتى! دعتك لعيادتى على ما بى من الفاقة، فإنى لا أملك درهمًا أدفعه إليك جزاء! فقال لها: أنا لست طبيبًا. ثم أسلها: أليس لك من ناصر؟ فأجابته باكية، قالت: ليس لى أحد يهمه شأنى؟ حتى أهل بيتى الذى أقطن فيه فقراء. وقد كنت زوجًا لأحد العملة، وكنا فى سعادة ورغد من العيش، حتى اختطفه الموت، ودفعتنى الفاقة، فصرت أعمل ليلاً ونهارًا، عسى أن أحصل على القوت لثلاثة، أنا على ما بى أقدرهم على العمل، حتى أقعدنى المرض، وصرنا فى ضنك، وأحسبنا من الهالكين.

فأخرج من كـيسه جنيها، ودفـعه إلى الجارية تشترى منه طعـامًا، ولما رجعت به، تولى إصلاحه بنفسها، وتقـريبه من المريضة؛ ثم أخرج صرة من النقود، ودفعها إليها، تـستعين بها على حاجتها. وكان معـه خادم، فصرفه إلى أمر، ناجاه فيه، وأقام ينتظر، حتى عاد ومعه طبيب، فخاطبه فى شأن المريضة، ثم انصرف. فـأخبرها الـطبيب، أنه مأمـور بعيادتهـا كل يوم مرتين، وإحـضار حاجـتها من الأدوية، بـنفقة من قـبل ذلك المحسن. وأخبـرها أن ذلك الزائر الكريم، الذى تعرف إلى هذه الغرفة الحقيرة عند شدة أهلها، هو فريدرك ولى عهد مملكة الروسـيا. فلما سقط هذا الخبـر فى أذن المريضة، ابتهلت إلى الله تعالى، تسأل له خير ما أعطى عبدًا من عباده، والله يجزى المتصدقين.

* * *